إيمان ونور

هنري ج. م. نُوِين

# أخي آدم

## حبيب الله

نقَلَته إلى العربيّة

مَها حَسَن بَحْبُوح

دار المشرق-بيروت

www.faithandlight.wordpress.com

لا مانع من طبعه

**بولس دحدح**
النائب الرسوليّ للّاتين
بيروت في ٢٠٠٧/٦/٢٩

جميع الحقوق محفوظة، طبعة أولى ٢٠٠٧
**دار المشرق ش م م،**
ص.ب. ١٦٦٧٧٨
الأشرفية، بيروت ٢١٥٠ ١١٠٠
لبنان
http://www.darelmachreq.com

ISBN 2-7214-5242-8

التوزيع: **المكتبة الشرقيَّة**
الجسر الواطي - سنّ الفيل
ص.ب: ٥٥٢٠٦ - بيروت، لبنان
تلفون: (٠١) ٤٨٥٧٩٣
فاكس: (٠١) ٤٨٥٧٩٦ - ٤٩٢١١٢
Website: www.librairieorientale.com.lb
E-mail: admin@librairieorientale.com.lb
Email: libor@cyberia.net.lb

صدر هذا الكتاب بالإنكليزيّة تحت عنوان:
Henri J.M. Nouwen
*Adam, God's beloved*
Orbis Books
P.O.Box 308, Maryknoll, NY 10545-0308, U.S.A.

## الإهداء

# إلى جين وريكس آرنيت

www.faithandlight.wordpress.com

# تمهيد

بعد مدّة وجيزة من وفاة آدم آرنيت، في شباط/فبراير من العام ١٩٩٦، أخبرني هنري أنّه كان يفكّر في وضع كتاب يتحدّث فيه عن آدم. وأراد أن يعرف إن كان بوسعي أن أساعده فأروي له بعض الأخبار عن حياة آدم. صُدمتُ لهذا الطلب لأنّي كنت أرى أنّ الوقت ما زال مبكرًا لوضع كتاب، ولم ينقضِ زمن يُذكر على وفاة آدم. أخبرته أنّني بحاجة إلى المزيد من الوقت. جاء الردّ قاسيًا فخَدَش مشاعر هنري، وقد وضع الكتاب بدون مساعدتي. وكان أن جُرِحَتْ مشاعري أنا!

أرسل هنري المسوَّدة الأولى إلى ناشره، روبرت إلسبيرغ Robert Ellsberg، وجرت بينهما مراسلات في شأن نقاط الضعف ونقاط القوّة في المخطوطة، وفي ما يتوجَّب عمله. كما تحدَّث إلى جين وريكس آرنيت، والدَي آدم، وطلب مقابلتهما ليسمع منهما بعض الأحداث والحقائق المتعلّقة بطفولة آدم. واتّفق الجميع على اللقاء لكي يحصل هنري على المزيد من الموادّ للفصلين الأوّلَين.

في الحادي والعشرين من شهر أيلول/سبتمبر من العام ١٩٩٦، توفّي هنري فجأة.

ونظرًا إلى أنّه قد أُسندت إليّ مهمّة تنفيذ الجزء المتعلّق بالأعمال الأدبيّة في وصيّة هنري، ورثتُ من ضمن ما ورثت مسؤوليّة إنهاء الكتاب. وفَّر لي ناشر هنري الدعم، كما ذهبتُ لزيارة والدَي آدم. بعد ذلك، بدأت العمل بالمخطوطة.



www.faithandlight.wordpress.com

الأمر الذي حرّك مشاعري بدايةً هو قوّة العلاقة التي ربطت بين آدم وهنري وعمق مغزاها. جاءت العلاقة في مرحلةٍ مهمّة من حياة هنري كان يبحث فيها عن منزل يأويه، وتمكّن آدم، ببساطته وبحضوره، من إشعار هنري بأنّه وصل إلى منزل يرحِّب به. إنّها قصّة لا تُصدَّق.

وقد لاحظتُ، إلى جانب ذلك، ضعف النصّ، وبخاصّةٍ في ما يتعلّق بطفولة آدم، لذلك عملتُ على تلافي الضعف في ذلك الجزء. ولقد أتاح لي هذا العمل فرصة الإحساس بالأسى على فقد صديقيَّ العزيزَيْن. كنتُ أتحدّث إليهما في أثناء قيامي بالعمل، وإن كنتُ لم «أسمعهما» يجيبانني أبدًا. لكنّ ذلك كان يحرّك في قرارة نفسي شحنة لا يستهان بها من الطاقة، وكنتُ أقوم بالعمل يملأني الشغف والإيمان. في رأيي، كان ذلك يعني حضورَ روحيهما الهاديتَيْن. وأنا على قناعة تامّة بأنّهما قدَّما إليّ يد العون.

وفي حين كانت مشاعر الأسى تحدق بي، كان النصّ الذي يصف علاقة الصديقَيْن يبعث فيَّ روحًا جديدة. أشعر الآن بواجبِ شُكرٍ لقيامه بهذه المبادرة، كما أشعر بالسعادة لأنّه أُتيح لي الإسهام في قصّة آدم وهنري. وقد أدَّيتُ العمل مثلما أدّاه هنري، بحبّ وحبور وحرّيّة.

صاغ هنري حياة آدم في قالب حياة يسوع، وأبدع في ما فعل. لم يقتصر الأمر على ذلك، بل أدرك، إبّان وضع الكتاب، أنّ قصّة آدم هي قصّة حياته هو.

كلمة أخيرة: لقد أهدى هنري، بعبقريّته كاتبًا، إلى كلٍّ منّا، قصّته الخاصّة.


**سُو مُوسْتِيللر**

**Sue Mosteller, C.S.J**
**Henry Nouwen Literary Centre**
**L'Arche Daybreak**
**Richmond Hill, Ontario, Canada**


١ أيّار/مايو ١٩٩٧





## كيف جرى وضع هذا الكتاب؟

في شهر أيلول/سبتمبر ١٩٩٥، منحني سكّان «السفينة دِيبْرِيك» «L'Arche Daybreak» إجازةً لمدّة سنة، احتفالًا بمرور عشرة أعوام على خدمتي جماعَتَهم. وبما أنّني أحمل رغبة دفينة في الكتابة، فقد اخترتُ قضاء هذه السنة في الانصراف إلى أبحاث تتعلّق بعدّة موضوعات، كانت مصدر إلهام ودعم في أثناء عملي. ويعود الفضل في صياغة الكثير من تلك الأفكار إلى حياتي في تجمُّع ديبريك الذي أصبح منزلي الحقيقيّ.

كنت أفكّر وأمعن التفكير: «بمَ أومن؟...»، «ما هو معنى قولي إنّني أومن بالله: الآب والابن والروح القدس؟...»، «ماذا أقول عندما أتلو بنود الإيمان؟...». كانت تلك الأسئلة تلازمني منذ بعض الوقت، لذا قرّرتُ أن أؤلِّف كتابًا صغيرًا في قانون الإيمان المسيحيّ.

تحدّثتُ بهذا الشأن إلى عدّة أشخاص، واقترحتُ على صديقي وناشري، روبرت إلسبيرغ، أن أبدأ العمل على موضوع عقيدة إيمانيّة معاصرة. ومع أنّني كنت معنيًّا بصورة أساسيّة بإيجاد طريقة جديدة للتعبير عن العقيدة التي حاولت العيش من خلالها طوال حياتي، كنتُ، إلى جانب ذلك، أعتقد أنّ هذا من شأنه مساعدة العديد من الرجال والنساء في العالم، ممَّن تؤرقهم الأسئلة ذاتها، الذين فَقَدَت الصيغُ



www.faithandlight.wordpress.com

التقليديّة، في نظرهم، كلّ مغزًى، ولم تعد تربطهم بها أيّة صلة.

تملّك روبرت إلسبيرغ حماسة بالغة إزاء الفكرة، وبذَل وقتًا وجهدًا لجمع مقالات في الإيمان المسيحيّ. عندما بدأتُ بقراءة المقالات، سرعان ما وجدتُ نفسي غارقًا في مناقشات لاهوتيّة معقّدة تتناول أصول الصيغة المركزيّة في العقيدة المسيحيّة، والأشكال المتعدّدة التي تظهر بها هذه الصيغة. بدأتُ أتساءل هل خطّتي البسيطة في ظاهرها، ستتحوّل فعليًّا إلى مشروع طَموح؟ كنتُ، بكلّ بساطة، أرغب في التعبير بلغة مفهومة عن الكيفيّة التي نتمكّن بها من أن نعيش حياتنا باسم الله العطوف. وكلّما قرأتُ أكثر، بدا الأمر أشدّ صعوبة. وكان عليّ أن أتساءل في قرارة نفسي: كيف أجرؤ على تأليف كتاب مسؤول يتناول قانون الإيمان الخاصّ بجميع المسيحيّين، بعد أن تركتُ الحياة الأكاديميّة منذ أكثر من عشرة أعوام، من دون أن يكون في نيّتي القيام بدراسة لاهوتيّة معمّقة؟ وهل أنا، في المقام الأوّل، إلّا كاهن رعيّة يعمل ضمن مجموعة صغيرة من الأشخاص تضمّ أفرادًا يعانون من إعاقات عقليّة؟... لا شكّ في أنّ ذلك لا يكوّن بيئة متميّزةً لمناقشة بنود الإيمان الاثني عشر في عقيدتنا. فالعدد الأكبر من الأشخاص الذين عشتُ معهم ضمن مجتمع «ديبريك»، لم يتمكّنوا قطّ من التعبير عن معتقداتهم على نحو واضح ممنهج. وفي رأي العديد منهم، يُعتبر التفكير المتأمّل في البنود اللاهوتيّة صعبًا، إن لم نقل مستحيلًا.

وعندما بدأت بالتساؤل إن كنتُ أحاول التصدّي لأداء مهمّة تتجاوز قدراتي، توفّي آدم آرنيت. كان آدم صديقي ومعلّمي ومرشدي: كان صديقًا استثنائيًّا، إذ لم يكن يستطيع التعبير عن العواطف والحبّ بالطريقة التي يعبّر بها معظم الناس؛ معلّمًا استثنائيًّا، لأنّه لم يكن يستطيع أن يتفكّر ويتأمّل أو أن يعبّر عن الأفكار أو المفاهيم؛ مرشدًا



استثنائيًّا، لأنّه لم يكن يستطيع بذل أيّ نصح أو أيّ توجيه محدّد. كان آدم أحد نزلاء الملجأ عندما جئتُ إلى «السفينة ديبريك» لأوّل مرّة. كان الشخص الأوّل الذي عُهدَ إليّ برعايته عندما التحقتُ بتجمّع «السفينة ديبريك» في تورنتو Toronto حيث كان يعيش.

منذ اللحظة الأولى التي رأيتُ فيها جسد آدم مسجًّى في التابوت، تكشّف أمامي لغز حياة هذا الرجل وموته. وسرعان ما أدركتُ في قرارة نفسي أنّ هذا الإنسان المعوَّق كان محبوبًا من الله منذ الأزل، وقد أرسله إلى هذا العالم لأداء مهمّة فريدة، هي شفاء المرضى، وأنّ المهمّة قد تحقّقت. واتّضح أمامي العديد من المعالم المتطابقة بين قصّة يسوع وقصّة آدم، كما أدركتُ أمرًا آخر. أدركتُ في أعماق نفسي أنّ آدم، بطريقة خفيّة ونوعًا ما، قد تحوّل في حياتي إلى صورة للمسيح الحيّ، تمامًا مثلما كان يسوع، في أثناء حياته على الأرض، الصديق والمعلّم والمرشد لتلاميذه. في آدم، ومن خلال آدم، توصّلتُ إلى إدراكٍ جديد تمامًا لعلاقات يسوع تلك، ليس بالطريقة التي عاشها قبل زمن بعيد وحسب، بل بالطريقة التي يرغب في أن يعيشها اليوم، معي ومعنا جميعًا، من خلال الأشخاص الضعفاء والأشدّ حساسيّة. والواقع أنّ رعايتي آدم لم تقرّبني من معرفة الله معرفة أعمق وحسب، بل إنّ آدم ساعدني أيضًا، من خلال حياته، على اكتشاف وإعادة اكتشاف روح يسوع حيّة داخل «فقري الروحيّ». لقد عاش يسوع منذ زمن بعيد، لكنّ آدم عاش في زمني. كان يسوع موجودًا بالجسد في نظر تلاميذه. وكان آدم موجودًا بالجسد في نظري. يسوع كان عمّانوئيل، إنّه الله معنا. أصبح آدم في حياتي شخصًا مقدّسًا، شخصًا ورعًا، صورةً للإله الحيّ.

هل كان آدم عجيبًا جدًّا؟ هل كان ملاكًا من نوع خاصّ؟ كلّا...



www.faithandlight.wordpress.com

لم يكن كذلك على الإطلاق. كان آدم شخصًا من بين عدّة أشخاص آخرين، لكنّني ارتبطتُ به بعلاقة، وأصبح إنسانًا خاصًّا في حياتي. أحببتُ آدم. وكانت علاقتنا إحدى أهمّ العلاقات في حياتي. لقد أثّر فيَّ موت آدم بعمق، لأنّه كان في نظري الشخص الذي قادني إلى شخص يسوع، أكثر ممّا قادني أيّ كتاب أو أيّ أستاذ. كان موته بمثابة نداء ليقظتي. وبدا وكأنّ آدم قال لي: «والآن، وبعد أن غادرتُك، يمكنك أن تكتب عنّي وأن تقول لأصدقائك ولقرّائك ما علّمتك إيّاه عن لغز الإله الرائع الذي هبط ليعيش بيننا، والذي أرسل إلينا الروح القدس».

* * *

بعد جنازة آدم، وعندما عاودتُ الكتابة، عدتُ لمواجهة السؤال: «بمَ أومن؟...». وعندها أدركتُ أنّ بوسع آدم مساعدتي في الإجابة عن هذا السؤال. توقّفتُ عن قراءة المقالات اللاهوتيّة والتاريخيّة وشرعتُ أتفكّر مليًّا في حياة هذا الرجل الاستثنائيّ الذي توفّي عن عمر يسوع، أي في الرابعة والثلاثين، وفي النداء الروحيّ الذي كان يسيِّره. وعندما استعرضتُ في ذهني وقلبي حياته القصيرة، أدركتُ أنّ قصّة حياة آدم ستقدِّم إليَّ كلمات تمكِّنني من الحديث عن عقيدتي وعن بنود الإيمان المسيحيّ بأسلوب يقارب فهم الناس بسهولة. وشيئًا فشيئًا، تحوَّل آدم الذي لم ينطق بكلمة طوال حياته، إلى مصدر حقيقيّ للكلمات التي مكّنتني من التعبير عن إيماني العميق، إيمان مسيحيّ يعيش لحظة الانتقال إلى الألفيّة الثالثة. أصبح ذلك الشخص الهشّ دعمًا قويًّا ساعدني على إعلان ثراء يسوع. والشخص الذي لم يكن بوسعه التعرّف إليَّ بوضوح، أصبح قادرًا من خلالي، على مساعدة الآخرين في التعرّف إلى الله في حياتهم.



إنّ الأسى الذي شعرتُ به بوفاة آدم قادني إلى المكان الذي كنتُ أفتّش عنه في قرارة نفسي، بحيث تمكّنتُ من الحديث عن الله وعن دخول الله في التاريخ الإنسانيّ. وأدركتُ أنّ قصّة آدم ستساعدني على رواية قصّة يسوع، لأنّ هذه الأخيرة كانت قد ساعدتني على فهم قصّة آدم.

كان يمكن أن يكون اسمه حنّا أو بطرس. ولا شكّ في أنّ كون الشخص الذي كشف لي يسوع بطريقة بالغة الخصوصيّة كان يحمل اسم آدم، لا يعدو أن يكون محض مصادفة، لكنّها مصادفة ساقتها العناية الإلهيّة. وآدمنا، شأنه شأن آدم الأصليّ، يمثّل كلّ إنسان. بالتالي فهو يثير التساؤل بسهولة بالغة: «مَن هو آدم في نظرك، ومَن الذي يتحدّث إليك عن الله؟...»

بدأتُ الكتابة، والقصّة التالية قد تكون أقرب ما يمكنني الكتابة عن قانون الإيمان الرسوليّ. آدم هو بوّابة التعبير عن هذه البنود، ولهذا أكتب بكلّ محبّة وبكلّ عرفان بالجميل له ولعلاقتنا الخاصّة. كما أكتب والأمل العميق يغمرني في مساعدة أشخاص عديدين، من خلال قصّة آدم، على التعرُّف على قصّة الإله بين ظهرانينا، وهكذا يتمكّنون من القول: «أنا أومن» بطريقة جديدة.



www.faithandlight.wordpress.com

## الفصل الأوّل

# حياة آدم الخفيّة

كان آدم الابن الثاني لجين وريكس آرنيت، وُلد في ١٧ تشرين الثاني/نوڤمبر العام ١٩٦١. وكان صبيًّا جميلًا أدخل الحيويّة والبهجة في قلوب والدَيْه وشقيقه مايكل ذي الأعوام الثمانية، وجدَّيه. وبما أنّ مايكل كان يعاني من نوبات صرع متكرّرة وبحاجة دائمة إلى المساعدة، طلبت جين وريكس إجراء فحص شامل لآدم بشأن الصرع. جاءت نتائج الاختبارات سلبيّة، وكان ذلك مبعث راحة كبيرة للوالدَيْن.

لكنّ آدم كان بطيئًا بالرضاعة ممّا أثار قلق والدته. وعندما أصبح في الشهر الثالث من عمره أصيب إصابة خطيرة في أذنه رافقتها حمّى. أدركت جين فورًا طبيعة هذه الأعراض، ولفَّته ببطّانيّة وهرعت به إلى منزل جارتها الممرّضة التي أخذته بسيّارتها إلى المستشفى. في وقت لاحق من تلك الليلة، أكّد الطبيب أنّ آدم مصابٌ بالصرع هو أيضًا.

إستغرق آدم وقتًا طويلًا ليتعلّم الحبو، وعندما تمكّن من الوقوف كان قد تجاوز العام. وظلّ لفترة طويلة يسير في أنحاء المنزل وهو يتمسَّك بالأثاث، ويتحرّك ببطء وحذر. وأخيرًا، وبعد أن أصبح في الثانية من عمره، بدأ يسير وحده بدون التمسّك بشيء، واغتبط والداه لذلك.



www.faithandlight.wordpress.com

تتابعت النوبات، ووُصِفت له الأدوية، لكن مضت عدّة سنوات كان فيها وضع آدم الجسديّ جيّدًا بشكل عامّ. لم يتعلّم النطق، لكنّه كان يستجيب للتوجيهات، ويدرك ما يحدث حوله، ويتواصل بطريقته الخاصّة. عندما كان والده يصدر صوت أزيز ويرسم بإصبعه دوائر فوق رأس آدم، إلى أن تحطّ «النحلة» بلطف على أنف آدم، كان آدم يمسك بذراع والده ويرسم دوائر في الهواء، ليشير إلى أنّه يريد أن يلعب اللعبة ثانية.

* * *

عندما بلغ الرابعة من العمر، كان له أسلوبه الخاصّ في التجوّل في أرجاء المنزل، وكان يحبّ بشكل خاصّ أن يذهب خلف المنزل ويتسلّق طاولة خاصّة بالنزهات، ويجلس فوقها بانتظار أن تُحضر له والدته العصير. ثمّ يتحرّك إلى حافّة الطاولة حيث لم يكن ثمّة مقعد ويبدأ بالنزول عن الطاولة. ولكن عندما تتجاوز قدماه الحافّة، كان يبقى معلّقًا هناك من دون أن يتحرّك صعودًا أو هبوطًا. لم يكن يتفوّه بأيّة كلمة، بل يبقى بانتظار أن ينقذه أحد. كان قد تعلّم كيف ينزل، لكنّه كان يفضّل هذه الطريقة. كان ينتظر المساعدة بكلّ هدوء. وضعيّة الانتظار تلك التي بدأت في مرحلة مبكرة من حياته، أصبحت هي السمة الغالبة عنده في ما بعد.

وبما أنّ آدم لم يكن يستطيع اللعب والكلام، شأن بقيّة الأطفال في سنّه، فلم تتوافر لديه الفرصة لتكوين صداقات أو لتوسيع آفاقه. وإذا استثنينا حياته مع عائلته، لم يكن هناك مَن يحفل بحياة آدم وبتطوّره، بل إنّ هذه الحياة لم تكن تُلحظ إلّا من خلال إعاقته.

كان آدم يحبّ السير منطلقًا من خلف المنزل باتّجاه الشارع ومن ثمّ يعود. وبالرغم من وجود أربعة بيوت متشابهة في الشارع، فإنّه كان



دائمًا يعرف أيًّا من تلك البيوت كان بيته، ولم يكن ليتجاوزه. وعندما كان يركض، كان يتهادى ببطء في الشارع رافعًا ذراعَيْه في الهواء. أحيانًا، كان الجيران يتعرّفون إليه ويتّصلون بوالدَيْه لتحذيرهما، خشية أن يذهب بعيدًا.

بعد أن غدا أكبر من أن يتّسع له مقعد الأطفال في عربة التسوُّق، كانت جين لا تزال مضطرّة لاصطحابه إلى المخزن، بحيث تضعه في العربة وتكوّم المشتريات فوقه. تقول جين وهي تستعيد ذكرياتها: «عندما أبدأ بالتسوّق كان يبدو شديد الهدوء، ولكن عندما كنتُ أشرع في البحث عمّا أريد، كان يمدّ يده ويضع أغراضًا في العربة. كنتُ أوَنّبه وأقول له إنّني لا أريدها، لكنّه لا يتوقّف عن المحاولة. في البداية، كان يجلس بهدوء، ولكن عندما تبدأ المشتريات بالتكوُّم فوقه، كان يهتاج ويبدأ بإبعادها عنه. وكان عليّ أن أطمئنه إلى أنّنا قاربنا على الانتهاء، وإلى أنّه سيكون حرًّا بعد خمس دقائق. وعندما تمتلئ العربة كان يرفع الأغراض واحدًا إثر آخر، ويدلّي ذراعَيْه ببطء وهدوء من فوق الحافّة ويرميها. وبسبب آدم، كنتُ أعود إلى المنزل أحيانًا وأنا أحمل من الأغراض أكثر ممّا أحتاج، وأحيانًا أخرى أقلّ». لم تفارق روح الدعابة ريكس وجين في غمرة كلّ ذلك.

كان آدم يحبّ الأكل وبخاصّة الحلويات. وبما أنّ مايكل كان ثرثارًا لا يلقي بالًا إلى الطعام، كان آدم غالبًا ما يمدّ يده ويضع ملعقته في حلوى مايكل. بل كان أحيانًا يحاول جذب طبق مايكل إليه، إذا غفل مايكل عنه. كانت ألاعيب آدم تبعث التسلية في نفس ريكس وجين.

كانت خزانة الأدوات المنزليّة في منزل آل آرنيت تقع في بسطة أعلى الدرج. لاحظ ريكس يومًا أنّ آدم فتح الباب وأخرج المكنسة



www.faithandlight.wordpress.com

الكهربائيّة. إكتشف آدم أنّ بإمكانه سحب المكنسة ببطء إلى حافّة الدرج الطويل أمامه، وكان لذلك وقع السحر عليه. ويقول ريكس: «كنتُ أقف أسفل الدرج وأشعر بالإثارة لرؤيته يباشر عملَ شيء ما، ناديت جين لتراقب المشهد معي. وكان آدم يرمقنا بنظرة كلّما جذب المكنسة أقرب إلى حافّة الدرج، مدركًا نوعًا ما أنّه يقوم بعمل مؤذ. أخيرًا، دفع بالمكنسة التي تدحرجت وهي تتكسّر لدى ارتطامها بكلّ درجة». يروي ريكس هذه القصّة وكأنّها انتصار صغير. لقد فعل آدم شيئًا ما!... شيئًا يصدر ضجيجًا!... شعر ريكس بالحماسة لدرجة أنّه قال لآدم: «كرّر ما فعلتَ!...». وعندما روى ريكس القصّة، ختمها ضاحكًا: «كنّا على استعداد لشراء مكنسة كهربائيّة جديدة، لكي يعود يدحرجها ويختبر مدى قوّته».

لم يكن آدم مناسبًا لمعايير الالتحاق بالمدرسة، وهو ما زاد من عزلته طفلًا. وعندما بلغ الثامنة، تعرَّفت جين إلى مجموعة من الأهالي الذين يشرفون على برنامج صغير يضمّ متطوّعين لرعاية الأطفال المعوَّقين، وكان بوسع آدم حضور هذا البرنامج لمدّة ساعتين في اليوم. وعندما بلغ العاشرة، أصبح بإمكانه أخيرًا الالتحاق بالمدرسة، لكنّه غالبًا ما كان يصل متأخّرًا، أو يضطرّ للمغادرة قبل الأوان بسبب نوباته. أي إنّ حياته الدراسيّة كانت، شأنها شأن حياته الاجتماعيّة، محدودة. لم يُدْعَ آدم إلى العديد من حفلات أعياد الميلاد، وقضى الشطر الأكبر من طفولته منعزلًا مع أسرته الصغيرة.

لكنّه، مع ذلك، كان يحبّ الرياضة. فبعد أن بدأ يتردّد إلى المدرسة بوقت قصير، بدأ يقفز في سريره في كلّ وقت من أوقات الليل أو النهار. وكان الوالدان يحبّان كلّ ما يقوم به آدم من تلقاء نفسه. لكن ذلك كان أمرًا خطرًا. وشعرا بالقلق على سلامته، لذلك لم يتوقّفا عن



محاولة إفهامه أنّ السرير لم يكن بالمكان الأمثل للقفز. لكن ذلك لم يكن رأيه. لجأ ريكس إلى تدعيم السرير، وكان يصلحه باستمرار، لكنّ السرير تداعى بالكامل في ما بعد. بعد الحادث بوقت قصير، عرضت المدرسة على الوالدَيْن فيلمًا لم تكن صورته واضحة تمامًا، ظهر فيه أحد التلاميذ وهو يقفز على جهاز الترامبولين. سألت جين عن التلميذ، فأجابتها المدرِّسة: «إنّه ابنك!...». وكان ذلك جوابًا عن اللغز.

لم يكن آدم معروفًا تمامًا في كنيسته، وشعر الوالدان بالألم عندما علما أنّ آدم، نظرًا إلى إعاقته، لم يكن بإمكانه تلقّي طقوس القربان المقدّس والتثبيت الدينيّ كبقيّة الأطفال في سنّه. لكن في ما بعد، وضمن مجموعة تشترك معهما في العقيدة، تناول آدم القربانة الأولى واحتفل مع أصدقائه القلائل.

* * *

إبّان سنوات حياته المخفيّة، تواصل آدم مع الآخرين بطرقه الفريدة الخاصّة، لكنّه لم يكن دائمًا مفهومًا تمامًا. مرَّ عليه عام صعب عندما شخَّص الأطبّاء إصابته بالصمم. فحصه اختصاصيّون، وجُهِّز بمعدّات تساعد على السمع، لكنّه كره تلك المعدّات كرهًا شديدًا. وظلّ لعدّة أشهر، ومهما حاول الأشخاص من حوله مساعدته على التأقلم مع تلك المعدّات وقبولها، يبدي انزعاجه ولا يدَّخر جهدًا لنزعها من أذنيه. ومرّ عام تقريبًا قبل أن يكشف تشخيص آخر: إنّه لم يكن أصمّ وأنّ المعدّات المساعدة على السمع لم تساعد سوى بتضخيم الأصوات التي كان بإمكانه سماعها بصورة طبيعيّة، وهذا ما كان يسبّب له ألمًا في أذنيه. ويقول والده معلِّقًا: «أعتقد أنّه عانى كثيرًا، لكنّنا لم ندرك ذلك لأنّه كان عاجزًا عن إعلامنا».

لم يكن باستطاعة آدم قراءة الساعة، لكنّه كان يعرف مواعيد



www.faithandlight.wordpress.com

الوجبات. ففي الساعة الخامسة بعد الظهر من كلّ يوم، كان يذهب إلى المطبخ، ويفتح بابَي الخزانة المنزلقَيْن بكلّ هدوء، ويُخرج قدرًا يضعها على الموقد، وذلك ليذكّر جين بأنّ الوقت قد حان لتباشر إعداد العشاء. إذا لم تفهم جين الإشارة كان يبدأ بهزّ القدر، ويتأكّد من أنّ جين «سمعت» أنّ العشاء هو الأولويّة التالية.

عندما بلغ الثالثة عشرة، ذهب في دورة تعليميّة لمدّة أسبوعين للتدرُّب على استخدام المرحاض في مركز خاصّ بالمعوَّقين. كان لدى آدم خصلتان لم يعرف العاملون في المركز شيئًا عنهما مطلقًا: كان يحبّ الأكل، ويبوّل فقط عندما يكون مرتديًا الحفاض أو سرواله الداخليّ. ففي حين كان العاملون يشعرون بالدهشة والسرور لأنّه كان النزيل الوحيد الذي يستطيع الذهاب وحده إلى قاعة الطعام، كانوا عاجزين عن فهم السبب الذي يجعل آدم، بعد جلوسه على مقعد المرحاض لثلاث أو أربع ساعات من دون طائل، يبوّل بغزارة بمجرّد ارتدائه سرواله الداخليّ. عندما انتهت الدورة التدريبيّة، جاء ريكس لاصطحابه في سيّارته الجديدة. ويبدو أنّ ذلك حدث بعد قضاء ساعات طويلة بعد الظهر في التدريب، لأنّه حال دخول آدم السيّارة، سرعان ما «تغطّست». كانت الابتسامة تعلو وجه آدم.

* * *

في أحد الأيّام، وبعد ذلك بوقت قصير، كان والده في اجتماع عمل، وكانت جين بمفردها في المنزل مع الطفلين. إضطرّت جين للصعود إلى الطابق العلويّ لإحضار شيء ما، قالت لمايكل: «راقب أخاك للحظة وسأعود سريعًا». وعندما كانت في الطابق العلويّ رنّ جرس الهاتف، وبينما هي تتحدّث بدأ مايكل بالصراخ: «تعالي، تعالي، حالة طارئة!...». هرعت جين وهبطت الدرج لتجد آدم ملقًى



إلى جانب الأريكة مضرجًا بدمائه، بحيث لم تستطع تحديد المصدر. وعندما رفعت رأسه لاحظت، يملأ قلبها الفزع، أنّ سنَّيه الأماميَّتَيْن قد انغرزتا في لثّته بسبب السقطة. أجريت له عمليّة في المستشفى لإعادة السنّين إلى مكانهما وتلبيسهما. قال الأطبّاء إنّ آدم أثناء النوبة والسقطة قد أحدث غرزًا في لسانه، وأنّ ذلك كان مصدر الدماء.

غيَّرت هذه النوبة حياة آدم. فقد قام الأطبّاء في المستشفى بفحصه فحصًا شاملًا وقرّروا أن يصفوا له علاجًا دوائيًّا جديدًا. وإبّان الأيّام التي تلت، لم تكفّ والدته عن إخبار الممرّضات بأنّ الصبيّ الراقد من دون حراك على السرير لا يشبه في شيء الصبيّ الذي يعيش في منزلها، يتجوّل فيه بنفسه ويشارك في حياة أفراد الأسرة. أخبرتها الممرّضات بأنّهنّ لا يستطعن القيام بأكثر ممّا قمن به، وأنّ باستطاعتها أخذه إلى المنزل. بعد ثلاثة أيّام قضاها في المنزل، اتّصلت والدته بممرّضة صحّة عامّة استطاعت كشف اللغز. فالأطبّاء، بعد أن قرّروا الوصفة العلاجيّة الجديدة، فاتَهم إلغاء العلاج الدوائيّ السابق، أي إنّ آدم كان يتناول جرعة زائدة من الأدوية. وكانت النتيجة أذيّة دائمة، ولم يعد آدم إلى ما كان عليه بعد تلك التجربة. لم يعد لديه سوى القليل من الطاقة، وفقد الكثير من قدرته على الحركة في أرجاء المنزل وعلى توجيه أنشطته. صار يحتاج إلى مَن يساعده في المشي، وغالبًا ما كان والداه يضطرّان لحمله. أصبحت نوباته أكثر تواترًا وصارت تستنزف قواه. عندما كان يشعر بأنّه متوعّك، سواء بسبب اضطراب في معدته أو لأيّ سبب آخر، كان يبحث عن أحد والديه ويعانقه بهدوء ولطف. وقد أحبّ هذه الوضعيّة وكان بإمكانه أن يرتاح قرير العين على هذا النحو لفترات طويلة.

عندما أسأل ريكس عن آدم، يقول: «كان آدم صانع السلام في



www.faithandlight.wordpress.com

منزلنا. فحضوره الهادئ كان يحملنا دائمًا إلى موقع ساكن داخل نفوسنا، ويبعث جوًّا من المحبّة في المنزل». لم يتحدّث ريكس كثيرًا عن الجهد المرهق الذي تطلّبته العناية بمايكل وآدم: الرفع، الحمّام، الحلاقة، الإطعام، الغسيل، إلباس الثياب وخلعها، المدارس، البرامج اليوميّة، الأطبّاء، الاختصاصيّين. لقد كانت مهمّة جبّارة.

عندما شخَّص الأطبّاء أنّ جين مصابة بارتفاع خطير بضغط الدم، نصحوها بأن تشرع في السعي لإيداع مايكل وآدم لمدّة طويلة في إحدى المنشآت التي تُعنى بالأشخاص المعوَّقين. كان ذلك أمرًا لا مجال لريكس وجين الوالدَيْن أن يفكّرا فيه، لكنّهما كانا يعلمان أيضًا أنّه من المستحيل الاحتفاظ بالصبيَّيْن في المنزل على المدى البعيد. كان مايكل وآدم قد أصبحا على عتبة الشباب، وأصبحت العناية بهما مهمّة تتطلّب تفرّغًا. لقد حان الوقت لكي يجدا بيئة جديدة. ولكن إلى أين يذهبان؟

كان الوالدان يعرفان «L'Arche Daybreak» لأنّ كثيرًا من الأشخاص العاملين في ذلك التجمُّع كانوا أعضاء في مجموعتهما الدينيّة الصغيرة. L'Arche هو اتّحاد دوليّ مؤلَّف من جمعيّات يستند إلى تعاليم عظة الجبل The Beatitudes أسَّسه الكنديّ جان ڤانييه Jean Vanier العام ١٩٦٤. يتألَّف كلّ تجمُّع من منازل تتوزّع في أحياء عاديّة ويعيش فيها أشخاص من ذوي الإعاقات مع مساعديهم حياة مشتركة بروحيّة العواطف المتبادلة. ويرى اتّحاد L'Arche أنّ «الأشخاص المصابين بإعاقات عقليّة غالبًا ما يتمتّعون بسجايا معيّنة كالاحتفاء بالآخرين والتعبير عن الدهشة والعفويّة والصراحة، وهم المثال الحيّ الباقي عن العالم الأكثر رحابة للقِيَم الوجدانيّة الأصيلة». (وثيقة L'Arche).



كان ريكس آرنيت وزوجته قد زارا «ديبريك» في مناسبات عدّة. ومع أنّهما كانا يدركان أنّ الأشخاص الموجودين هناك أشخاص طيّبون، لكنّهما شعرا بأنّه من الصعب عليهما أن يتخيّلا ترك ولديهما في رعاية هذه المجموعة من المساعدين الشبّان الذين يفتقرون إلى الخبرة. وقد لاحظا أنّ الجوّ مفعم بالحبّ والرعاية، لكنّ المجموعة كانت كبيرة العدد، وكان الموقف العامّ ضمن المجموعة تسوده روح العَرَضيّة غير المنظّمة. خشِيَ والدا مايكل وآدم ألّا تتمّ تلبية احتياجات ولديهما على النحو الأمثل. طرحا تساؤلات جدّيّة بهذا الخصوص، فقيل لهما إنّ المجموعة لم يسبق أن قبلت شخصًا مصابًا بالصرع أو شخصًا له احتياجات علاجيّة خاصّة، وإنّ المنزل لم يكن آنذاك مجهّزًا لاستقبال نزيل ذي احتياجات عديدة مثل آدم، ولكن يمكن استقبال مايكل مرشّحًا للإقامة، لأنّه قادرٌ على المشي وعلى الاهتمام ببعض شؤونه الخاصّة.

تلت ذلك رحلة بحث مضنية، زار في أثنائها الوالدان الجميلان العديد من الوكالات والمؤسّسات. شعر الوالدان بالصدمة والدهشة لرؤية الشروط السائدة في بعض الأماكن في ما خصَّ آدم، بحيث ترتّب على الأشخاص العيش ضمن ظروف كئيبة موحشة وسط الروائح الكريهة. قال ريكس إنّه، وللمرّة الأولى في حياته إبّان تلك السنوات، استولى عليه شعور بالإحباط.

عاد الوالدان إلى «ديبريك»، وعندما توافر مكان انتقل مايكل على مضض إلى غرينهاوس «Green House - المنزل الأخضر» في «ديبريك». في ما بعد، أُودِع مايكل مستشفى للرعاية الدائمة قرب منزل والدَيه. كان باستطاعتهما زيارته يوميًّا، وقد واظبا على زيارته إبّان السنوات الخمس التالية.



www.faithandlight.wordpress.com

كانت تلك السنوات الانتقاليّة بمثابة مَطْهَر Purgatory طويل الأمد لريكس وجين، فما بالك بمايكل وآدم. فقد شعر مايكل الذي كان حزينًا لفقدان الراحة والرعاية اللتَيْن كانت عائلته توفّرهما له، بالأسى في «ديبريك» أوّل مرّة، وناشد والدَيْه كي يردّاه إلى المنزل لاستعادة ما فقده. أمّا آدم الذي وجد نفسه في بيئة حياديّة في جناح مستشفى يضمّ أشخاصًا آخرين يحتاجون إلى رعاية طويلة الأجل، فقد تمثّلت استجابته في خسارة الوزن وعدم القدرة على الوقوف أو السير أو الحركة بمفرده. فطر ذلك قلبَي ريكس وجين حزنًا، إذ كانت علاقتهما بولدَيْهما قد صاغت هويّتهما. كان عليهما الآن ترك الولدين في رعاية آخرين غرباء، لا يمكنهم أبدًا أن يوفّروا للولدَيْن الحبّ ذاته والاهتمام كوالدَيْهما. ودأب الأبوان على التساؤل: «هل ثمّة طريقة أخرى للقيام بذلك؟...»، «هل سيحظى آدم بمنزل؟...».

* * *

عندما أفكّر في المرحلة الأولى من حياة آدم لا أستطيع تجاهل ذلك التماثل الوثيق مع حياة يسوع في منزله. لم يأت يسوع إلى الدنيا محاطًا بالقوّة والجبروت. بل جاء يكتنفه الضعف. الجزء الأكبر من حياته ظلّ خفيًّا، وكان أثناءَه يشارك البشر شروط حياتهم رضيعًا، وطفلًا، ومراهقًا مضطربًا، وبالغًا ناضجًا. كانت حياة آدم الخفيّة، شأنها شأن حياة يسوع في الناصرة، مرحلة تحضير غير مرئيّة للوقت الذي يمدّ فيه يد العون إلى أشخاص عديدين، مع أنّه ووالديه لم يروا الأمر من هذه الزاوية.

أنا لا أدّعي هنا أنّ آدم كان يسوعَ آخر. ما أقوله هو إنّه بسبب ضعف يسوع وحساسيّته، يمكننا رؤية حياة آدم المليئة بالضعف، حياة ذي مغزى روحيّ فائق. لم يكن آدم يتمتّع بفضائل بطوليّة فريدة: لم



نُبدع أيّ شيء يمكن أن تكتب عنه الصحف. لكنّني على ثقة بأنّ آدم قد اختير ليشهد على حبّ الله من خلال ضعفه. هذا لا يعني أنّني أرسم له صوره رومانسيّة، أو أنّني أتكلّم عليه بأسلوب عاطفيّ. كان آدم، مثلنا جميعًا، إنسانًا قاصرًا، لكنّه أكثر قصورًا من معظمنا، عاجزًا عن التعبير عن ذاته بالكلمات. لكنّه كان أيضًا إنسانًا كاملًا، ورجلًا ينعم بغبطة روحيّة. وأصبح من خلال ضعفه واسطة فريدة لنعمة الله. لقد أصبح تجلّيًا للمسيح بين ظهرانينا.

كان آدم نورًا ينعم بنور داخليّ متوهّج. كان نور الله. ولم يكن لديه سوى القليل من وسائل التسلية، والقليل من الارتباطات، والقليل من الطموحات لملء فضائه الداخليّ. لذلك، لم يكن على آدم ممارسة قواعد الانضباط الروحيّ لكي يُفرِغَ نفسه من أجل الله. فقد تكفّلت «إعاقته» المزعومة بهذه المهمّة. ففي حياته، لم يكن الله موضوعًا للبحث الفكريّ أو العاطفيّ. ومثل يسوع، لم يكن بإمكان أحد إدراك مدى محبّته، وشبهه بالله، ورسالته في السلام سوى أولئك الراغبين في الترحيب به رسولًا من الله.

كان معظم الناس يرون في آدم شخصًا معوَّقًا ليس لديه الكثير ليقدّمه، وعبئًا على عائلته ومجتمعه الصغير والمجتمع عمومًا. وطالما كان يُنظر إليه بهذا الشكل، ظلّت حقيقته خفيّة. فما لا يمكن تلقّيه لا يمكن تقديمه.

لكنّ والديه كانا يحبّانه لأنّه، وبكلّ بساطة، كان آدم. لقد عرفاه وأحبّاه لما هو عليه. ودون أن يعيا ذلك، رحّبا به شخصًا مرسلًا من الله في وضع بالغ الضعف، ليكون واسطة لنعمة الله. رؤيته بهذه الصورة تغيّر كلّ شيء تغييرًا جذريًّا، لأنّ آدم في لحظة كهذه يظهر للعيان شخصًا فريدًا، وطفلًا رائعًا ثمرةَ البشرى.



www.faithandlight.wordpress.com

لقد ساعدتنا شفافيّته، في ما بعد، نحن المقيمون في «ديبريك» وما حوله، في التعرُّف إلى وجه من حبّ الله غير المشروط. فقد بعث حضوره الرائع وقيمته التي لا تقدَّر، النور داخل أنفسنا، وجعلانا ندرك أنّنا أيضًا أطفال أثيرون مباركون محبوبون كبقيّة أطفال الله، سواء أأغنياء كنّا نعتبر أنفسنا أم فقراء، أذكياء أم معوَّقين، وسواء أنتمتّع بمظهرٍ حسن كنّا أم بمظهر يفتقر إلى الجاذبيّة. وكان يقودنا، كأيّ مرشد روحيّ، بلطف ورفق إلى تلك الأعماق الداخليّة التي نفضِّل ألّا نمسّها، وذلك لكي يتمكّن كلٌّ منّا من تحقيق النداء الروحيّ الحقيقيّ الموجود داخله. من خلال علاقتنا بآدم، كنّا نكتشف هويّة أعمق وأشدّ صدقًا.

لكن كلّ تلك البشرى كانت خفيّة في سنوات حياته الأُوَل. وأنا لا أعتقد أنّ والدَي آدم تحدّثا عن ولدهما أو فكَّرا فيه من هذا المنطق، مثلما أنّني لا أعتقد أنّ والدَي يسوع قد فكَّرا في ولدهما على هذا النحو. لكن هذا لا يستبعد بالضرورة فهم لغز حياته الذي تكشَّف تدريجيًّا بعد موته. وذلك كان ما حدث مع يسوع. وذلك كان ما حدث مع معظم الأشخاص الذين نعتبرهم قادة روحيّين تاريخيّين عظماء.

في عينَي الله، إنّ الأمور الأعمق مغزًى تكون غالبًا هي الأمور الأكثر تواريًا عن الأنظار. إنّ القصص التي حصلت إبّان سنوات آدم الثماني عشرة في منزله وفي كنف والديه، هي قصص عاديّة. فهي لا تحكي عن أيّة معجزات أو أحداث خارقة. بل تحكي عن عائلة صغيرة تعيش في منزلها في الضواحي، وتبذل جهدًا لتعيش حياة عاديّة مع صبيَّيْن رائعَيْن، ليسا عاديَّيْن تمامًا. تحكي هذه القصص عن آدم الذي ظلّ جماله خفيًّا على نحو غامض في نظر جميع مَن قابلهم، باستثناء عائلته وبعض الأصدقاء القلائل «المستنيرين».



## الفصل الثاني

# صحراء آدم

تخبرنا الأناجيل أنّ يسوع بعد عمادته مباشرة قاده الروح القدس إلى البرّيّة لمدّة أربعين يومًا، حيث تعرّض للإغواء من قِبَل الشيطان. الصحراء، في الحياة الروحيّة، هي موطن الغواية والاختبار والتطهُّر. لقد عاش آدم أيضًا زمن «البرّيّة».

ونظرًا إلى سياسة الحكومة بهذا الشأن، رفض مستشفى الرعاية الدائمة استقبال آدم قبل أن يبلغ الثامنة عشرة، ويصبح مؤهّلًا للحصول على معاش الإعاقة الحكوميّ. ولدى استلام الشيك الأوّل باسمه، أخذته جين إلى المستشفى، وتمّ قبوله وأُفرِدَ له سرير.

تعرّف ريكس وجين إلى بقيّة النزلاء في غرفة آدم في اليوم الأوّل لدخوله: مريض في الثامنة عشرة مصاب بالسكتة الدماغيّة، طريح الفراش وعاجزًا عن التواصل؛ رجل دمث يعاني من التصلّب اللويحيّ؛ شابّ من جامايكا مشلول لإصابته بكسر في العنق بمكان عمله. كانت الغرفة واسعة وفيها نافذتان كبيرتان، وكان سرير آدم قريبًا من الباب.

في اليوم التالي، وعندما جاءت والدته لزيارته بعد الظهر، شاهدت آدم مستيقظًا ومرتديًا ثيابه، جالسًا بهدوء، لكنّه مقيّد اليد والخصر والقدم إلى الكرسيّ المتحرّك. قالت جين للعاملين وهي في حال من الصدمة



www.faithandlight.wordpress.com

والغضب والحزن، إنّ آدم لن يغادر مكانه، وما من ضرورة للقيود. وبمرور الوقت، تعرَّف العاملون إلى آدم وعلى احتياجاته.

كانت المستشفى تعاني من قلّة العاملين، وبالتالي، لم يكن هناك أشخاص متواجدون أو برامج تسعى لإخراج المرضى من غرفهم، أو لتحفيز أذهانهم أو أجسامهم. كانت الرعاية الجسديّة تسير بحسب البرنامج الموضوع، وكانت صواني الطعام تسلَّم إليهم، لكنّ الحياة كانت كئيبة مملّة وموحشة.

وفي أثناء مدّة قصيرة تعهّد الوالدان مسؤوليّة إطعام آدم وجبتَي الظهر والمساء. وكان الأصدقاء يُدعَوْن أو يتبرّعون للمجيء، وإطعام آدم في الأوقات التي لا يتمكّن فيها الوالدان من الحضور. وقد وفّر ذلك لآدم فرصة الحصول على الزيارات والأحاديث والمعاملة الخاصّة التي لا يمكن أن يقدّمها سوى الأشخاص الذين يعرفونه.

إبّان السنوات الخمس التي عاش فيها آدم تجربته في البرّيّة، لم يعبِّر عن مشاعره وأفكاره في شأن حياته في المستشفى. لم يكن بوسعه الاحتجاج أو حشد القوى للمطالبة بحياة أفضل، كان عاجزًا حتّى عن إظهار مدى وحدته، أو مدى ألمه، أو مدى سخطه. وظلّ لساعات عديدة في النهار والليل، وحيدًا صامتًا، ينتظر بصبر أن يحظى بمنزل.

كان آدم يأتي إلى منزله بصورة منتظمة في عطل نهاية الأسبوع. ويقول ريكس في معرض التعليق على ذلك: «كان روحًا وديعة، وكنّا نحبّ وجوده معنا». وفي حين كان الوالدان يحاولان من دون كلل جعل حياة آدم مريحة قدر المستطاع، كان الهمّ الرئيس الذي يشغل بالهما هو العثور على مكان يكون منزلًا لآدم. لم يتوانيا عن البحث. زارا الملاجئ والوكالات والمؤسّسات القائمة في جميع أنحاء أونتاريو، باحثَيْن عن مكان مناسب لإيواء آدم.



إكتشف ريكس يومًا أنّ آدم كان قد أصيب بنوبة، وأنّه أذى ذقنه ثانية وغرز سنّيه الأماميَّتَيْن في لثّته. لم يكن أحد قطّ قد لاحظ ما حدث، لذلك لم يعرف الأب كم من الوقت مضى على آدم وهو ينتظر العلاج والإسعاف. عندما طلب ريكس العون، قيل له إنّه لا يوجد أطبّاء أسنان بين طاقم العاملين، وإنّ عليه أخذ آدم ليراه طبيب أسنانه الخاصّ. هذه المرّة فقد آدم سنَّيه الأماميَّتَيْن.

تقرَّب ريكس وجين من پيتر أحد النزلاء في غرفة آدم. كان پيتر يبدو أحيانًا مخيفًا بشعره الأسود الكثّ، لكنّه في واقع الأمر كان رجلًا صبورًا ودمثًا. وأصبح، بصورة ما، الناطق باسم آدم. عندما كان جين وريكس يأتيان، كان يخبرهما أنّ آدم قد قضى ليلة مزعجة، أو أنّ آدم لم يصب بأيّة نوبة في ذلك اليوم، أو أنّ أصدقاء معيّنين قد جاؤوا لزيارة آدم. كان لپيتر أصدقاء من المجموعة الجامايكيّة المقيمة في تورنتو وكانوا غالبًا ما يزورونه، لكنّ الزيارة التي كان يعلّق الآمال عليها أكثر من غيرها كانت زيارة والدته. فقد كانت تركب الحافلة من نيويورك مرّة كلّ شهر وتجلب معها إلى پيتر بعضًا من «المنزل» بحبّها وبطعامها الجامايكيّ، وكان پيتر يحبّ أيضًا ريكس وجين وآدم وأصدقاءهم الذين كانوا يبادلونه الحديث ويساعدونه على قضاء أيّام الوحدة الطويلة.

* * *

ما من شكّ في أنّ الأيّام التي قضاها آدم في المستشفى كانت صحراء حياته. فكما ظلَّلت روحُ الله يسوعَ في الأردنّ ومن ثمّ اقتادته إلى الصحراء، ظلَّلَت هذه الروح آدم أثناء الفترة التي قضاها في المنزل واقتادته إلى موقع التطهُّر هذا. كان ذاك وقت الإغواء، قد لا يكون إغواء آدم نفسه قدر ما يكون إغواء مَن كانوا يرون فيه نعمة، ويطلقون عليه «صانع السلام لنا». كانوا قد أُحبطوا في سعيهم، كما أُحبطوا



www.faithandlight.wordpress.com

بسبب التعريف الذي يطلقه مجتمعنا على الأشخاص الهامشيّين. مَن ذا الذي أمكنه التعرُّف إلى رجل الله الجميل ذاك في مكان فسيح مغمور يسيِّره الروتين ويفتقر إلى العدد الكافي من العاملين؟... مَن ذا الذي أمكنه إدراك تفرُّد آدم في جوّ عومل فيه مع بقيّة شركائه «المرضى» معاملة موضوعاتٍ تجب رعايتها، لا معاملة مخلوقات إنسانيّة؟... مَن كان بإمكانه الاحتفاء بآدم في حين لم يكن يتوافر إلّا بالكاد وقت لاستحمامه وإطعامه؟... كان هناك ضغط لتناسي الأصل الإلهيّ لآدم ورسالته المقدّسة.

لقد أُرسل آدم ليحمل البشائر إلى العالم. كانت تلك رسالته، مثلما كانت رسالة يسوع. كان آدم، ببساطة متناهية وبهدوء يندر مثيلهما، موجودًا هناك. كان شخص أعلن، من خلال حياته، السرّ الرائع لله: أنا أثير، أنا محبوب، أنا كامل، أنا مولود من الله. وقد شكَّل آدم ذلك الشاهد الصامت على هذا السرّ الذي لا شأن له بقدرة آدم أو بعجزه عن الكلام، أو المشي، أو التعبير عن النفس، أو بقدرته على جني المال، أو بالحصول على عمل، أو بكونه عصريًّا أو مشهورًا أو متزوّجًا أو أعزب. كان السرّ يتعلّق بكينونة آدم. كان وما زال الطفل المحبوب من الله. كانت تلك هي البشائر ذاتها التي جاء يسوع ليعلنها، وهي البشائر التي لا يكفّ جميع المساكين عن المناداة بها في ضعفهم ومن خلال ضعفهم. الحياة نعمة. وكلّ فرد منّا شخص فريد، معروف بالاسم ومحبوب من قِبَل الواحد الذي كوَّننا. ومن سوء الحظّ، أنّ هناك رسالة عالية الصوت ومستمرّة وقويّة تصلنا من العالم الذي نعيش فيه، وتقودنا إلى الاعتقاد أن علينا البرهان على أهليّتنا لنكون محبوبين عبر مظهرنا ومن خلال ممتلكاتنا وإنجازاتنا. لقد استولى علينا هاجس «تحقيق النجاح» في هذه الحياة من دون أن نستوعب الحقيقة المحرِّرة المتعلّقة بأصولنا ونهايتنا المحسومة. نحن بحاجة إلى سماع الرسالة



وهي تُعلَن، ورؤيتها وهي تتجسّد، مرّة تلو الأخرى. عندها فقط نجد الشجاعة للمطالبة بها وللعيش بموجبها.

لم ينجز يسوع الكثير في أثناء حياته، ومات فاشلًا. آدم أيضًا لم ينجز الكثير. مات فقيرًا كما وُلِد. ومع ذلك، كان يسوع وآدم كلاهما ولدَي الله الحبيبَيْن - يسوع بالطبيعة، وآدم «بالتبنّي» - وعاشا نبوَّتهما بيننا بوصفها الشيء الوحيد الذي كان عليهما تقديمه. كانت تلك الرسالة التي كُلِّفا بها. وهي أيضًا رسالتي ورسالتك. إنّ الإيمان بها والعيش بموجبها هما قداسة حقيقيّة.

* * *

كانت السنوات التي انقضت في المستشفى هي السنوات الأخيرة من حياة آدم الخفيّة. فقد كان آدم، من عدّة نواح، لا يعدو كونه «زبونًا» لمعظم المدرِّسين الاختصاصيّين، والأطبّاء، والممرّضات، وأطبّاء الأسنان، وموظّفي الخدمة الاجتماعيّة، والقساوسة، والموظّفين الحكوميّين الذين قابلوه وعملوا معه، وأخفقوا مع ذلك في التعرُّف على روحه الجميلة، وصبره الذي لا ينضب، وقلبه الرقيق، وفي الإيمان بكلّ ذلك.

لكنّ ريكس وجين وأصدقاءهما حافظوا على حقيقة آدم في حيويّتها. فقد قهروا إغراء التركيز على إعاقاته فقط. والواقع أنّهم تقبّلوا حقيقة أنّه لا يستطيع تحويل الأحجار إلى خبز، أو القفز من برج شاهق من دون أن يصاب بأذى، أو تكوين ثروة طائلة. ولكن، لم يكن على آدم القيام بأيٍّ من تلك الشؤون الدنيويّة، فقد كانوا يعرفون في أعماق قلوبهم أنّه الأثير. لكنّ المعرفة الإلهيّة هذه دفعتهم إلى مواصلة البحث لأكثر من خمس سنوات عن منزل لآدم، عن مكان يستطيع فيه إظهار ما حباه الله من مواهب وممارسة كهنوته الفريد.



www.faithandlight.wordpress.com

لم يكن «ديبريك» مؤهّلًا لاستقبال آدم بسبب احتياجاته الجسديّة والعلاجيّة. ولكن مع مرور الوقت، بدأت تتكوّن صداقة بين الوالدَيْن والمقيمين هناك. فالمجتمع الصغير الذي استقبل مايكل كأحد نزلائه أدرك أخيرًا الأسى العميق الذي يغمر قلوب ريكس وجين وآدم. واتّضح تدريجيًّا أنّه ينبغي لآدم أن يعيش مع شقيقه في «ديبريك»، وأنّ من الواجب اتّخاذ جميع الترتيبات المساعدة على ذلك.

إستغرقت أعمال التحضير في «ديبريك» وقتًا طويلًا. فقد أُرسِل أحد المساعدين إلى مقرّ «L'Arche» الرئيس في فرنسا للتعرُّف على أساليب رعاية الأشخاص ذوي الاحتياجات الجسديّة والعلاجيّة الفائقة. وتمّ تجديد قسم من نيو هاوس «New House - المنزل الجديد»، وجُهِّز بحمّام خاصّ، ودرابزونات على امتداد الجدران، وبوسائل مساعِدة لحركة المقعد المتحرّك. وبوشر العمل في برنامج يوميّ خاصّ يوفّر أنشطة نهاريّة للنزلاء في مجموعة ريتشموند Richmond الأكثر اتّساعًا. إستغرق الأمر أكثر من عام، ولكن في نهاية المطاف، تمّت الإجراءات المناسبة للترحيب بآدم في منزله الجديد. أفعم الأمل قلبَي ريكس وجين! . . . وغمر الفرح قلب مايكل الذي انتظر طوال تلك السنوات ليعيش مع شقيقه. سادت الإثارة والترقّب الشديدان، الممزوجان بقليل من الخوف، بين جميع المقيمين في «ديبريك» إزاء فكرة استقبال شقيق مايكل، وفكرة توسيع رسالة المنزل لتشمل شخصًا له احتياجات أشدّ تعقيدًا.

في الأوّل من أيّار/مايو ١٩٨٥، ساعد ريكس وجين في عمليّة نقل ولدهما الثاني إلى نيو هاوس في «ديبريك». كان مايكل يساعدهما والفرح يغمره، لم تجفّ دموع جين وهي تنظّم الأثاث وترتّب ثياب آدم في غرفته الجديدة، في حين كان ريكس يمازح المساعدين وهم يُفرغون أغراض آدم. كانت حياة آدم العلنيّة تبدأ في تلك اللحظة.



## الفصل الثالث

# حياة آدم العلنيّة

في شهر آب/أغسطس من العام ١٩٨٦، قابلتُ آدم للمرّة الأولى. لدى وصولي إلى «ديبريك»، خُصِّصت لي غرفة نوم في القبو بنيو هاوس أحد المنازل الثماني التابعة للتجمُّع. وقد قُدِّر لهذا المنزل وللأشخاص الذين يعيشون فيه أن يصبحوا المرجع الذي أنتمي إليه ضمن المجموعة الأكبر في «ديبريك». في هذا المنزل، أُتيحت لي فرصة التعرّف على الحياة اليوميّة في منزل عاديّ من منازل «L'Arche».

قابلتُ، بالإضافة إلى آدم، نزلاء آخرين: روي ذا الخامسة والسبعين عامًا، الذي عاش لمدّة خمسين عامًا في مؤسّسة كبيرة خاصّة بالأشخاص المعوَّقين؛ جون الذي كان مصابًا بتناذر داون Down، وكان في الثلاثينيّات؛ روزي التي قضت عشرين عامًا من عمرها البالغ اثنين وعشرين عامًا، في مستشفى صغير خاصّ بالرعاية؛ ومايكل الذي كان في مستهلّ العشرينيّات والذي فقد الاتّصال بعائلته وكان يعاني حالة خطيرة من الشلل الدماغيّ. كان يُطلق على هؤلاء الأشخاص المعوَّقين اسم «الأعضاء المركزيّون» في «ديبريك»، لأنّهم كانوا يمثّلون لبّ حياة المجموعة التي تتشكّل حولهم. وكان المساعدون في المنزل من شبّان وشابّات من دول مختلفة جاؤوا لقضاء عام أو أكثر، لكي



www.faithandlight.wordpress.com

يكوّنوا مع الأشخاص المركزيّين في نيو هاوس أسرة واحدة.

قيل لي إنّ رسالة «L'Arche» هي «العيش مع» الأشخاص المعوَّقين، ولهذا باشرتُ حياتي الجديدة مع جميع الأشخاص في نيو هاوس. كان العمل اليدويّ والطهو ومهارات الأعمال المنزليّة غير مألوفة عندي. فقد كنتُ قد مارستُ التدريس لمدّة عشرين عامًا في جامعات هولنده والولايات المتّحدة، وفي أثناء تلك الفترة لم أكن لألقيَ بالًا لتأسيس منزل، كما أنّني لم أتعرّف عن كثب إلى أشخاص معوّقين. وكنتُ معروفًا بين أفراد عائلتي وأصدقائي بأنّني شخص غير عمليّ، وكثيرًا ما كان أصدقائي يطلقون عليّ اسم «الأستاذ شارد الذهن».

ولكن، وسواء أشاردَ الذهن كنتُ أم لم أكن، سرعان ما وُجِّه إليّ السؤال التالي: «هنري، هل لك أن تساعد آدم صباحًا في الاستعداد لقضاء يومه؟... وهذا يعني القيام بروتينه اليوميّ». مساعدة آدم كانت تعني إيقاظه في الساعة السابعة صباحًا، خلع ثياب النوم وإلباسه رداء الحمّام، ومساعدته على المشي إلى الحمّام، حلق لحيته، تحميمه، واختيار ثياب ليرتديها أثناء النهار، إلباسه، تمشيط شعره ومساعدته على المشي إلى المطبخ، وإعداد فطوره، والجلوس إلى جانبه في أثناء تناول الفطور، وسند كأسه في أثناء الشرب، تفريش أسنانه، إلباسه المعطف والقفّازات والقبّعة، ووضعه على المقعد المتحرّك، ودفع المقعد على الطريق المليء بالحفر والأخاديد، والمؤدّي إلى موقع برنامجه اليوميّ في «ديبريك» حيث يقضي النهار حتّى الساعة الرابعة بعد الظهر.

شعرتُ بالذعر!... فلم أكن أعتقد أنّ باستطاعتي القيام بذلك. «ماذا لو وقع؟... كيف أسنده في أثناء المشي؟... ماذا لو آلمتُه وهو



لا يستطيع الشكوى؟... ماذا لو أصابته نوبة؟... ماذا لو كانت مياه الاستحمام ساخنة أو باردة أكثر ممّا ينبغي؟... ماذا لو جرحتُه؟... أنا لا أعرف حتّى كيف أُلبسه ثيابه!... هناك أخطاء كثيرة يمكن ارتكابها. وفوق ذلك كلّه، أنا لا أعرف الرجل. أنا لستُ ممرِّضًا. ولم أتلقّ أيّ تدريب على هذا النوع من العمل!...». عبَّرتُ عن بعض تلك الاعتراضات، وأبقيتُ معظمها حبيسَ أفكاري. لكنّ الجواب جاء واضحًا وحازمًا ومطمئنًا: «بإمكانك القيام بذلك. سوف نساعدك في بداية الأمر ونخصّص لك الوقت الكافي إلى أن تشعر بالراحة. وعندما تشعر بأنّك أصبحتَ مستعدًّا، سوف تقوم بذلك وحدك. وحتّى في ذلك الوقت، لن يكلِّفك الأمر أكثر من استدعائنا عندما تواجه مشكلة. سيستغرق الأمر بعض الوقت، لكنّ الأمور ستتّضح أمامك، وتغدو سهلة. سوف تتعلّم الروتين، وستتعرّف إلى آدم جيّدًا كما سيتعرّف هو إليك».

بدأتُ العمل وأنا أرتعد خوفًا. ما زلتُ أذكر الأيّام الأولى. فقد كنتُ بالرغم من دعم المساعدين الآخرين، أتهيّب دخول غرفة آدم، وإيقاظ ذلك الشخص الغريب. كانت أنفاسه البطيئة وحركات يديه التي لا تهدأ تدفعني إلى الشعور بالتوتّر والحرج. لم أكن أعرفه. لم أكن أعرف ماذا يتوقّع هو منّي. لم أكن أرغب في أن أبدو أحمق أمام الآخرين، لم أكن أرغب في أن أصبح مادّة للسخرية. لم أكن أرغب في أن أصبح مصدر إحراج للآخرين.

في بداية الأمر، وبالنظر إلى أنّني كنتُ أجهل كيفيّة التواصل مع آدم من دون أن أتكلّم، مثلما كنت أتواصل مع الآخرين، ركَّزتُ على الأعمال الروتينيّة. في الأيّام الأولى تلك كنتُ أراه شخصًا شديد الاختلاف عنّي. لم أتوقّع إمكانيّة التواصل بيننا لعجزه عن الكلام.



www.faithandlight.wordpress.com

كان انقطاع أنفاسه أحيانًا ولحظات الصمت التي تسود عندها، يجعلني أتساءل إن كان سيتمكّن من سحب النفَس التالي. أحيانًا، كان يلوِّح بيديه ويشبك أصابعه بحيث يتداخل بعضها ببعض، وقد دفعني ذلك إلى الظنّ بأنّ ثمّة شيئًا يزعجه، من دون أن تكون لديّ أدنى فكرة عمّا يمكن أن يكون هذا الشيء. عندما كنتُ أساعده على المشي، كان عليّ أن أقف خلفه وأسنده بجسمي وبذراعيّ. وكنتُ في خشية دائمة من أن يتعثّر بقدميّ ويقع فيؤذي نفسه. كما لم أغفل مطلقًا عن احتمال تعرّضه لنوبة عنيفة في أيّة لحظة: جالسًا في حوض الاستحمام أو على مقعد المرحاض، أو هو يتناول فطوره، أو يرتاح، أو يمشي، أو في أثناء الحلاقة.

كنتُ في البداية لا أكفّ عن سؤال نفسي والآخرين: «لِمَ طُلِب إليَّ القيام بذلك؟... لِمَ وافقتُ؟... ماذا أفعل هنا؟... مَن هو هذا الغريب الذي يستهلك جزءًا كبيرًا من وقتي يوميًّا؟... ولِمَ يُطلب إليَّ أنا الشخص الأقلّ كفاءة من بين جميع الأشخاص في المنزل، العناية بآدم وليس بنزيل آخر ذي متطلّبات أقلّ؟...». وكان الجواب دائمًا هو ذاته: «لكي تتعرّف إلى آدم». وكان ذلك بمثابة الأُحجيَّة في حياتي. فقد كان آدم غالبًا ما ينظر إليّ ويلاحقني بعينيه، لكنّه لم يكن ليتكلّم أو يستجيب لأيّ أمر أطلبه إليه. لم يكن آدم يبتسم عندما أقوم بشيء ما على نحو يرضيه، أو يحتجّ عندما كنتُ أرتكب خطأً ما. كنتُ أتساءل إن كان قادرًا حتّى على تمييزي عن بقيّة الأشخاص. كيف سأتعرّف إليه؟... وكنتُ أسائل نفسي، ما الذي يدور في ذهنه، بمَ يشعر، بمَ يحسّ؟... ما نوع تجربته معي؟...

إبّان الأسابيع القليلة الأولى كنتُ لا أتوقّف عن رفع صوتي بالنداء من الحمّام: «ساعدوني رجاءً، فليأتِ أحد لمساعدتي. لا



أستطيع وضعه في حوض الاستحمام. لا أستطيع العثور على فرشاة أسنانه. لا أعرف إن كان هذا سروال العمل أم السروال العاديّ. أرجوكم، ليبْقَ أحد معه ريثما أحضر شفرة الحلاقة. لا أجرؤ على تركه بمفرده». وكانوا دائمًا يأتون: أنيكا، ريجينا، د. ج.، ستيف، أو أيّ شخص يصادف وجوده قريبًا، ليقولوا لي: «تابع هنري، أنت تتعرّف إليه الآن. وسرعان ما ستصبح خبيرًا بهذا الشأن!... وستحبّه». كنتُ آنذاك أشعر بقلق بالغ بحيث لم أستطع أن أتخيّل ماذا يمكن أن يعني: «أن أحبّ آدم».

على الرغم من جميع محاولاتي، لم يبدُ الأمر مفهومًا في نظري. أليس من المفروض أن يعمل أكثر الأشخاص تدريبًا مع الأشخاص ذوي الإعاقات الأبلغ؟... أليس من الواجب تخصيص الأفضل لمَن هم بحاجة أشدّ؟... لكنّ المساعدين كانوا يردّدون باستمرار أنّنا هنا لا نعتبر أنفسنا أشخاصًا يقومون بالرعاية مع مرضى، أو طاقم موظّفين مع زبائن. بعضنا مساعدون وبعضنا الآخر أعضاء مركزيّون. كلٌّ منّا - نعم، كلّ شخص - هو فعليًّا هاوٍ، وهذا يعني حرفيًّا: «مُحِبّ».

لم أكن أعي ذلك في البداية. فقد انصبّ اهتمامي لفترة من الوقت على القيام بالأشياء الصحيحة وتفادي الأخطاء قدر المستطاع. وبذلك تعلّمتُ الروتين أخيرًا، وبدأتُ أكتسب ثقة بنفسي. ولكن، لم تكن لي أدنى فكرة إن كان آدم قد بدأ يثق بي أم لا.

كنتُ في العادة أحتاج إلى ساعتَيْن لإيقاظ آدم وأخذه من السرير إلى الحمّام، ومن ثمّ أخذه من الحمّام إلى المطبخ، وإخراجه من المطبخ، وإجلاسه على المقعد المتحرّك للذهاب إلى موقع برنامجه اليوميّ. وعندما أسلّمه هناك، كنتُ أشعر بارتياح عميق وأباشر العمل، وأقوم بما أجيد القيام به: التحدّث، إملاء الرسائل، الاستشارات،



www.faithandlight.wordpress.com

إجراء مكالمات هاتفيّة، توجيه الاجتماعات، إلقاء المواعظ، وترؤّس الشعائر. كان ذلك هو العالم الذي كنتُ أشعر فيه بارتياحٍ وبأنّني كفوء.

وبالرغم من ذلك، ينبغي عليّ القول إنّني شعرتُ منذ البداية بشيء من الامتياز. فقد أحسستُ بالامتنان لأنّ المساعدين الشبّان في نيو هاوس كانوا لا يتوقّفون عن تشجيعي لمساعدة آدم، ولا عن إبداء ثقتهم بأنّني أستطيع القيام بذلك. شعرتُ بالامتنان لأنّهم لم يلتمسوا لي عذرًا كوني متقدّمًا في السنّ، أو مفتقرًا إلى البراعة، أو أعسر، أو عديم الخبرة، بحيث تتعذّر عليّ المحاولة. لكنّ الشعور الغالب كان شعوري بالتكريم لأنّ الشخص الأضعف والأبلغ إعاقة في المنزل - نعم، في التجمُّع بكامله - قد عُهِدَ به إليّ. كنت أدرك بشكل من الأشكال أنّ هذا هو الهدف المنشود من «السفينة»: وضع الأشخاص الأشدّ ضعفًا وهشاشة في موقع المركز والبحث عن مواهبهم الفريدة. كان آدم هو الأضعف بين الجميع في «ديبريك»، وقد عُهِد به إليّ، أنا الأقلّ كفاءة بين الجميع، لأرعاه... ولكن ليس فقط لأرعاه.

* * *

بدأت الأمور تتغيّر شيئًا فشيئًا، ولأنّني أصبحتُ أكثر ثقة واسترخاء، بدأ عقلي وقلبي ينفتحان أمام لقاء حقيقيّ مع هذا الرجل الذي أتى ليشاركني رحلة الحياة.

ومع انقضاء الوقت في «عملي» مع آدم، بدأتُ أرى نفسي في موقع المركز من «ديبريك». وكثيرًا ما قال لي جان ڤانييه، مؤسِّس «L'Arche»: «لم يؤسَّس L'Arche حول العالم بل حول الجسد. ونحن قد حظينا بامتياز وضع جسد إنسان آخر في عهدتنا». في السابق، كانت حياتي بكاملها تُصاغ بالكلمات والأفكار والكتب والموسوعات. لكن أولويّاتي بدأت بالتغيُّر آنذاك. صار ما يهمّني



هو آدم والوقت المتميّز الذي نقضيه معًا عندما يقدِّم إليَّ جسده باستسلام كامل، عندما يهبني نفسه لأخلع عنه ثيابه وأحمِّمه وأُلبسه وأطعمه وأسير به من مكان إلى آخر. كان اقترابي من جسد آدم يقرِّبني من آدم، بدأتُ أتعرّف إليه رويدًا رويدًا.

وينبغي لي الاعتراف بأنّه كانت هناك لحظات شعرت فيها بأنّني نافد الصبر ومشغول البال بما أنوي القيام به بعد الانتهاء من «روتين» آدم. في لحظات كهذه، كنتُ أبدأ باستعجاله، من دون أن ألقي إليه بالًا على أنّه إنسان. فكنتُ أتعمَّد دفع ذراعَيْه داخل كمَّيه، أو دفع ساقيه داخل بنطاله بسرعة، ولكن معظم الأحيان كنتُ أفعل ذلك من دون قصد. كنتُ أريد إنهاء العمل بحلول الساعة التاسعة لكي ألتفت إلى عملي الآخر. في لحظات كهذه، بالتحديد، عرفتُ أنّ باستطاعة آدم التواصل. فقد أشعرني بأنّني لم أكن موجودًا معه بالفعل، بل كنتُ مهتمًّا بجدول أعمالي الخاصّ، أكثر من اهتمامي بجدول أعماله هو. في بعض الأحيان، وعندما كنتُ أضغط لاستعجاله أكثر من اللازم، كانت استجابته تتمثّل في نوبة عنيفة، فأدركتُ أنّ تلك كانت طريقته للقول: «أبطئ، هنري، أبطئ». ولا شكّ في أنّ ذلك كان يدفعني إلى الإبطاء. فقد كانت النوبة تستنفد قواه بحيث كان عليّ إيقاف كلّ ما أقوم به وتركه يرتاح. وكانت شدّة النوبة أحيانًا تبلغ حدًّا يدفعني إلى إعادته لسريره وتغطيته بعدّة بطانيّات، ليتوقّف عن الارتجاف بعنف. كان آدم يتواصل معي، وكان لا يكفّ عن تذكيري بأنّه يريدني، وأنّه بحاجة إلى أن أبقى بجواره بلطف ومن دون استعجال. كان يسألني بوضوح إن كنتُ راغبًا في الالتزام بإيقاعه، وفي تكييف أساليبي وفق احتياجاته. وجدتُ نفسي وقد بدأتُ أفهم لغةً جديدة، لغةَ آدم.

بدأت أتحدّث إلى آدم، ولم أكن أعرف ماذا كان يسمع أو يفهم.



www.faithandlight.wordpress.com

ولكن استولت عليّ الرغبة في أن أعرِّفه بمشاعري، وبرأيي فيه، وبرأيي بنفسي، وبرأيي بكلينا، ولم تعد مسألة عدم قدرته على الاستجابة بالكلمات تهمُّني أبدًا. كنّا معًا، ننمّي صداقتنا، وكنتُ سعيدًا لوجودي هناك. وقبل انقضاء وقت طويل، أصبح آدم المستمع الذي أثق به أكثر من الآخرين. كنت أحدّثه عن الطقس، وعن اليوم الذي ينتظرنا، وعن يومه، وعن عملي، وعن ثيابه التي أفضّلها على غيرها، وعن نوع الحبوب التي سأطعمه إيّاها، وعن الأشخاص الذين سيقابلهم في ذلك اليوم. وجدتُ نفسي أبوح له بأسراري، وأحدّثه عن طباعي، وعن حالات الإحباط التي تصيبني، وعن علاقاتي السهلة والصعبة، وعن حياتي الخاصّة بالعبادة. الأمر الذي يثير الدهشة في كلّ ذلك هو إدراكي تدريجيًّا أنّ آدم كان حاضرًا بالفعل لأجلي، يصغي بكلّ كيانه ويوفِّر لي ملاذًا آمنًا. لم أكن أتوقّع ذلك، وبالرغم من أنّني لا أستطيع التعبير بدقّة، إلّا أنّ ذلك حصل فعلًا.

وفيما كانت تنقضي الأسابيع والأشهر، ازداد تعلّقي بالساعة أو الساعتَيْن اللتين أقضيهما يوميًّا مع آدم. كما أضحت تلك الساعتان هما الوقت الذي أقضيه بهدوء، وأكثر أوقات النهار امتلاءً بالتفكُّر والحميميّة. لقد تحوّلت الساعتان فعلًا إلى ما يشبه صلاة طويلة. كان آدم «يقول» لي دائمًا بهدوء: «كن معي فقط، وثق بأنّ هذا المكان هو الذي يجب أن تكون فيه... وليس أيّ مكان آخر». أحيانًا، وفي غمرة انشغالي في مكتبي أو حديثي إلى الناس، كان آدم يمرّ في خاطري. كنت أفكّر فيه حضورًا صامتًا مسالمًا في مركز حياتي. وأحيانًا، وعندما كنتُ أشعر بالضيق أو بالقلق أو الإحباط بشأن أمر لم يحصل كما يجب أو بالسرعة اللازمة، كان آدم يخطر ببالي وكأنّه يناديني للعودة إلى السكون الكامن في عين الإعصار. لقد انقلبت الأدوار، أصبح آدم هو المعلّم الذي يأخذ بيدي ويسير بي في غمرة الفوضى التي أعيشها لنعبر برّيّة حياتي.



بل إنّ الأمر تعدّى ذلك. فالوقت الذي كنتُ أقضيه معه يوميًّا خلق بيننا رابطةً أعمق ممّا كنتُ أعتقد بداية. كان آدم هو الشخص الذي يساعدني على التشبّث لا بـ«ديبريك» وحسب، بل بداخل ذاتي أيضًا. فقد كان اقترابي منه ومن جسده يقرِّبني أكثر من نفسي ومن جسدي. بدا الأمر وكأنّ آدم لا ينفكّ يجذبني ليعود بي إلى الأرض، إلى أساس الوجود، إلى مصدر الحياة. كانت كلماتي العديدة، المحكيّة أو المكتوبة، تغريني على الدوام للارتقاء إلى أفكار ووجهات نظر متعالية، تجعلني أفقد الاتّصال بجمال الحياة العاديّة وبإيقاعها اليوميّ. لم يكن آدم يسمح لي بذلك، وكأنّه كان يقول لي: «هنري، لا يقتصر الأمر على كونك تمتلك جسدًا، مثلما أملك أنا، بل إنّك جسدك. لا تسمح لأفكارك بأن تنفصل عن طبيعتك البشريّة. الكلمات يجب أن تصبح، وأن تبقى، جزءًا من الجسد». كان آدم يتواصل معي، وكان يتحوّل ليشغل موقعًا مركزيًّا في حياتي. بدأتُ أختبر علاقة حقيقيّة بآدم، علاقة محبّة.

لم يعد آدم غريبًا في حياتي، بل أصبح صديقًا ورفيقًا موثوقًا يفسّر لي عبر حضوره ما كان عليّ أن أعرفه منذ البدء: أنّ ما أريده في الحياة أكثر من أيّ شيء - الحبّ والصداقة والمجتمع الصغير والإحساس العميق بالانتماء - كنتُ أجده معه. كانت كينونته الوديعة تتواصل معي في أثناء اللحظات التي نقضيها معًا، وبدأ يعلّمني الحبّ بأسلوب خفيّ عميق. وأنا على قناعة من أنّ آدم كان «يعرف» في مكان ما من قرارة نفسه أنّه كان محبوبًا. كان يعرف ذلك في أعماق روحه. لم يكن بوسع آدم أن يتفكّر مليًّا في المحبّة، في القلب بوصفه مركز كينونتنا وجوهر إنسانيّتنا، حيث نبذل المحبّة ونتلقّاها. لم يكن بوسعه أن يتحدّث إليَّ عن حركات قلبه، أو قلبي، أو قلب الله. لم يكن يستطيع أن يفسِّر لي أيّ موقفٍ بالكلمات. لكنّ قلبه كان هناك، حيًّا تمامًا، مفعمًا بالمحبّة التي كان يستطيع منحها وتلقّيها. قلبُ آدم جعله مكتمل الحياة.



www.faithandlight.wordpress.com

وفي حين كنتُ أقترب من آدم، اختبرتُ قلبه الجميل كبوّابة إلى ذاته الحقيقيّة، إلى شخصه، إلى روحه، وإلى نفسه. كان قلبه الشفّاف لا يعكس لي شخصه وحسب، بل يعكس أيضًا قلب الكون، وقلب الله في واقع الأمر. وبعد السنوات العديدة التي قضيتُها في دراسة اللاهوت والتفكُّر فيه وتدريسه، دخل آدم حياتي وأعلن لي من خلال حياته وقلبه، بل ولخَّص، كلّ ما كنتُ قد تعلّمته.

كنتُ أومن دائمًا بأنّ كلمة الله قد تجسّدت طبيعةً بشريّة. وكنتُ أبشِّر في مواعظي أنّ الإلهيّ تجلّى في الإنسانيّ، لكي تصبح جميع الأشياء الإنسانيّة تجلّيات للإلهيّ. كان آدم يأتي مع الآخرين للصلاة ولسماع مواعظي. كان يجلس في مواجهتي على مقعده، وكنتُ «أرى» الحضور الإلهيّ ماثلًا فيه. وأنا على قناعة من أنّ آدم كان يمتلك قلبًا تسكن فيه كلمة الله بصمت حميم، وفي أثناء اللحظات التي قضيناها معًا، قادني آدم إلى ذلك السَكَن الحميم حيث كان يتكشَّف معنى إنسانيّته وإنسانيّتي في العمق.

لم تتناقص إنسانيّة آدم بسبب إعاقاته. كانت إنسانيّته كاملة يتراءى فيها اكتمال الحبّ لي ولغيري، ممَّن تعلّموا معرفة آدم. نعم، بدأتُ أحبّ آدم حبًّا تجاوز معظم المشاعر والانفعالات والآلام التي كانت، في نظري، على صلة بالحبّ بين البشر. لم يكن باستطاعة آدم أن يقول «أنا أحبّك»، لم يكن باستطاعته أن يعانقني بعفويّة أو أن يعبِّر عن امتنانه بالكلمات. مع ذلك، بإمكاني القول إنّ أحدنا أحبَّ الآخر حبًّا تمثّلت فيه الطبيعة البشريّة كأيّ حبّ آخر، وكان في الوقت نفسه روحيًّا بصدق. كنّا صديقَيْن وأخوَيْن جمعتهما رابطة من القلب. كان حبّ آدم نقيًّا صادقًا. هو الحبّ ذاته الذي تجلّى في يسوع على نحو سرّيّ، والذي شفى كلّ مَن لمسه.



عندما أذهب إلى اجتماعات «السفينة» وإلى رياضات روحيّة، كثيرًا ما يُطلب إلينا التفكُّر في الأسئلة التالية: «مَن هو الشخص الموجود في المنزل الذي تقيم فيه. والذي كشف لك أنّ الأشخاص المعوّقين لديهم ما يقدّمونه بقدر ما يأخذونه؟... مَن هو الشخص الذي سمح لك بالتشبّث بالتجمُّع؟... مَن هو الشخص الذي دفعك إلى الالتزام في الحياة برجال ونساء معوّقين؟... مَن دعاك إلى الموافقة على عيش حياة تبدو من الخارج مملّة وهامشيّة؟... وجوابي دائمًا هو: «آدم». كان آدم يعتمد علينا اعتمادًا كلّيًّا بحيث دفعني إلى بلوغ الجوهر، إلى النبع. ما هو المجتمع الصغير المتضامن؟... ما هي الرعاية؟... ما هو الحبّ؟... ما هي الحياة؟... ومَن أنا، مَن نحن، مَن هو الله؟... كان آدم حيًّا تمامًا في حياتي، وهو الذي أنار سبيل الإجابة عن جميع تلك الأسئلة. هذه التجربة لا يمكن فهمها عن طريق التفسير المنطقيّ، بل تُفهم في سياق، ومن خلال الرابطة الروحيّة التي جمعت شخصَيْن مختلفَيْن تمام الاختلاف، اكتشف كلّ منهما الآخر مخلوقًا متساويًا معه تمامًا في قلب الله. من أعماق قلبي، كنتُ أنا قادرًا على أن أقدّم إليه بعض الرعاية التي كان يحتاج إليها، ومن أعماق قلبه، كان هو يباركني بنعمة صافية دائمة من ذاته.

* * *

## كيف أدركتُ كلّ ذلك؟

بعد بضعة أشهر من قدومي إلى «ديبريك»، حضر لزيارتي كاهن من أصدقائي كان قد درَّس عددًا من الطلّاب اللاهوت الراعويّ عدّة سنوات. وكان قدومه بعد أن اكتمل تحوُّلي ونسيتُ نظرتي الأولى إلى آدم التي اتّسمت بضيق الأفق. كنتُ قد توقّفتُ عن اعتباره غريبًا، أو حتّى معوَّقًا. كنّا نعيش معًا، وكانت حياتي مع آدم ومع الآخرين في



www.faithandlight.wordpress.com

المنزل «طبيعيّة» جدًّا. كنتُ أشعر بأنّني قد حظيتُ بامتياز رعاية آدم، وكنتُ متشوّقًا إلى تعريف صديقي به.

عندما حضر صديقي إلى نيو هاوس ورآني مع آدم، نظر إليّ وقال: «هنري، هل هذا هو المكان التي تقضي فيه وقتك؟...». ولاحظت أنّه لم يكن منزعجًا وحسب، بل وغاضبًا أيضًا: «هل غادرتَ الجامعة حيث كنتَ مصدر الإلهام للكثيرين، لتخصِّص وقتك وطاقاتك لآدم؟... أنت حتّى لستَ مدرَّبًا للقيام بذلك، لِمَ لا تترك هذا العمل لمَن تدرَّبوا عليه؟... لا شكّ في أنّ لديك أمورًا أفضل تقضي بها وقتك».

شعرتُ بصدمة، وتسارعت الأفكار في ذهني من دون أن أتلفّظ بها: «هل تحاول أن تقول لي إنّني أضيّع وقتي مع آدم؟... أنت الكاهن المحنَّك والمرشد الرعويّ!... ألا ترى أنّ آدم هو صديقي، ومعلّمي، ومرشدي الروحيّ، ومستشاري، وكاهني؟...». وأدركتُ مباشرة أنّه لم يكن يرى في آدم الشخص الذي كنتُ أراه. ما قاله صديقي كان منطقيًّا في نظره، لأنّه لم «ير» آدم فعلًا، وهو لم يكن بالطبع مهيّأً لأن يعرفه.

كان لدى صديقي العديد من الأسئلة الأخرى ليطرحها عن آدم وعن الأشخاص الذين يعيشون معي في المنزل: «ما الداعي لصرف كلّ هذا الوقت والمال على أشخاص يعانون من إعاقات خطيرة، في الوقت الذي ثمّة أشخاص أصحّاء عديدون يعيشون بشقّ الأنفس؟... ولماذا يُسمح لأشخاص كهؤلاء بالحصول على الوقت والطاقة اللذَيْن يجب تخصيصهما لحلّ المشاكل التي تواجهها الإنسانيّة؟...».

لم أجب عن أسئلة صديقي. لم أجادل أو أناقش «المسائل» التي طرحها. إنتابني شعور عميق بأنّه لم تكن لديّ أيّة حجّة حصيفة بحيث



يمكنها تغيير تفكير صديقي. كانت الساعتان اللتان أقضيهما مع آدم يوميًّا تعملان على تحويلي. فقد كان مجرَّد حضوري من أجله يجعلني أسمع صوت حبّ داخليّ يتجاوز كلّ أعمال الرعاية التي كنتُ أقوم بها. كانت تلك الساعتان نعمةً صرف، وقتًا للتأمُّل، نلامس في أثنائه قوّةً إلهيّة. مع آدم، عرفتُ حضورًا قدسيًّا و«شاهدتُ» وجه الله.

لسنوات عدّة، كنتُ قد خصّصت كلمة «تجسّد» لوصف الحدث التاريخيّ لمجيء الإله إلينا بشخص يسوع. لكنّ قُربي الوثيق من آدم جعلني أدرك أنّ «حَدَث المسيح» يعني أكثر من مجرّد قصّة حدثت منذ زمن بعيد. فهو يحدث في كلّ مرّة تحيي فيها روحُ الروحَ القدس في الجسد. هو حَدَث قدسيّ يحدث في الوقت الحاضر لأنّه حَدَث يخصّ الله بين الناس. وهذا هو معنى حياة الأسرار المقدّسة. إنّه تجسُّد الله الذي يستمرّ من دون توقّف في كلّ مرّة يقابل الناس بعضهم بعضًا «باسم الله». كانت علاقتي بآدم تهبني عينَيْن جديدتَيْن لأرى بهما، وأذنَيْن جديدتَيْن لأسمع بهما. كنتُ أتغيَّر أكثر ممّا كنتُ أتوقّع.

كنتُ مجرّد فرد واحد ضمن صفّ طويل من الأشخاص الذين كانوا يخصّصون وقتهم وطاقتهم لآدم. ولم يكن آدم معزولًا عدا الساعات الثماني التي ينام فيها. فاعتبارًا من التاسعة صباحًا ولغاية الرابعة بعد الظهر، في أثناء برنامجه اليوميّ، كان آدم محاطًا برجال ونساء يسيرون معه، ويسبحون معه، ويمارسون التمرينات الرياضيّة معه، ويساعدونه في تناول الطعام، ويغيّرون له ثيابه بانتظام. وطوال تلك الساعات كان الناس يتحدّثون إليه، ويضحكون معه، ويشاطرونه الإصغاء إلى الموسيقى، ويخلقون له مكانًا يشعر فيه بالأمان والألفة. وعندما كان يعود إلى منزله في نيو هاوس في الساعة الرابعة، كان يضجع في مقعده لبضع ساعات ويغفو قليلًا ليرتاح. بعد ذلك يحين



www.faithandlight.wordpress.com

وقت العشاء، وهو الوقت الذي كان يمكن فيه لآدم إبراز القدر الضئيل الذي يتمتّع به من الاستقلال باستخدام ملعقته وكوبه، وإثارة دهشة ضيوفه بشهيّته القويّة. بعد العشاء يأتي وقت الصلاة والتراتيل. كان الناس يمسكون بيدَيْه أو يحيطون كتفَيْه بذراعهم. كان مايكل، شقيق آدم، زائرًا مستديمًا، وكان مثلي، يستمتع بالجلوس بجوار آدم والتحدّث إليه أحيانًا، بالرغم من شعوره بالرضى والسعادة أثناء لحظات الصمت الطويلة بحضور آدم. وكان كلّ من جين وريكس يحبّان إعادته إلى البيت لقضاء عطلة نهاية الأسبوع وأيّام العطل، كما كانا يحبّان زيارته على الدوام، والسير معه والجلوس إلى جانبه في غرفة المعيشة أو في غرفة نومه، والهمس في أذنه بكلمات الحبّ. كان لكلّ شخص علاقة بآدم، وكان كلّ شخص يتلقّى نِعَمًا من الكنيسة والحضور والأمان والحبّ.

هل كان باستطاعة آدم الصلاة؟ هل كان يعرف مَن هو الله وما معنى كلمة يسوع؟ هل كان يدرك سرّ حضور الإله بيننا؟ فكّرت كثيرًا في هذه الأسئلة. وتساءلت كثيرًا عن المدى الذي يمكن فيه لآدم معرفة ما أعرفه، وفهم ما أفهمه. لكنّني أدرك الآن أنّ تلك الأسئلة كانت في نظري أسئلة من المستوى «الأدنى»، أسئلة تعكس قلقي وشكّي أكثر ممّا تعكس محبّة الله. لكنّ أسئلة الله، الأسئلة الآتية من المستوى «الأعلى»، كانت: «هل تستطيع أن تدع آدم يقودك إلى الصلاة؟ هل يمكنك التصديق أنّ صلة حميمة عميقة تربطني بآدم، وأنّ حياته صلاة؟ هل تستطيع أن تدع آدم يتحوّل إلى صلاة حيّة وهو على مائدتك؟ هل تستطيع رؤية وجهي في وجه آدم؟».

وفي حين كنتُ أنا، المُعْتَبَر شخصًا «طبيعيًّا» لا أكفّ عن التساؤل عن مدى شبه آدم بي، لم تكن لدى آدم الإمكانيّة أو الحاجة إلى إجراء



أيّة مقارنات. كان يعيش بكلّ بساطة، ومن خلال حياته، كان يدعوني إلى تقبُّل نعمته الفريدة، المغلَّفة بالضعف ولكن المُقدَّمة إليّ لكي أتحوّل. وفي حين كنتُ منصرفًا إلى التساؤل عمّا كنتُ أقوم به وعن مدى ما أحقّقه من إنتاج، كان آدم يعلّمني أنّ «الوجد أهم من إنجاز عمل». وفي حين كانت تشغل بالي الطريقة التي يتحدّث بها الآخرون أو يُكتب عنّي، كان آدم يخبرني بهدوء أنّ «حبّ الله أهمّ من ثناء البشر». وفي حين كنتُ مهتمًّا بفرديّتي وبإنجازاتي، كان آدم يذكّرني بأنّ «القيام بعمل بمشاركة الآخرين أهمّ من القيام به بصورة منفردة». لم يكن باستطاعة آدم إنتاج أيّ شيء، لم يكن يتمتّع بشهرة تدفعه إلى الفخر، لم يكن باستطاعته التباهي بأيّة جائزة أو تذكار انتصار. كان مجرّد وجوده على قيد الحياة، أكثر الشهود أصالة على حقيقة حياتنا، من بين مَن قابلتهم.

* * *

تطلَّبت منّي رؤية هذا الانقلاب التامّ في القِيَم وقتًا طويلًا، لكنّني عندما اختبرتُ هذه الرؤية، أحسستُ وكأنّني أسير في فضاء روحيّ جديد بالكامل. أنا الآن أدرك بوضوح أعمق ماذا قصد يسوع عندما قال: «ولكن طوبى لعيونكم لأنّها تبصر، ولآذانكم لأنّها تسمع. فإنّي الحقّ أقول لكم إنّ أنبياء وأبرارًا كثيرين اشتهوا أن يروا ما أنتم ترون ولم يروا. وأن يسمعوا ما أنتم تسمعون ولم يسمعوا» (**متّى ١٣ : ١٦، ١٧**). لقد تجسّدت أمامي في شخص آدم جميع المفارقات الكبيرة المذكورة في الإنجيل: إنّ الأخير سيصبح الأوّل، وإنّ الذين فقدوا حياتهم سيربحونها ثانية، وإنّ الفقراء مباركون، وإنّ المساكين سيرثون ملكوت الله.

الأمر هنا لا يتضمّن عذوبة أو ورعًا. فهناك العديد من الرجال والنساء الذين ساعدوا آدم إبّان السنوات الإحدى عشرة التي عاشها في



www.faithandlight.wordpress.com

«ديبريك»، وبإمكانهم جميعًا رواية قصص تتعلّق بنعمة رعايته. عندما قَدِم آدم إلى نيو هاوس كان في الثانية والعشرين من عمره. لم يكن بالطبع رجلًا نحيل الجسم، ولم يكن من السهل إسناده من الخلف والسير به، كما أنّ العديد من الأنشطة اللازمة للحفاظ عليه بحالة جسديّة جيّدة كانت مضنية ومعقّدة. وبمرور السنوات، لم يتمكّن سوى القليل من الأشخاص في تجمُّع «ديبريك» من تعلُّم «روتينه»، بحيث يمكن استدعاؤهم في حال عدم وجود شخص غير مشغول في المنزل لمساعدة آدم. فقد كان شركاء آدم في المنزل، روزي ومايكل وجون وروي، بحاجة أيضًا إلى كثيرٍ من الاهتمام. فروزي التي جاءت إلى نيو هاوس في الوقت نفسه مع آدم، لم تكن إعاقتها أبسط. ومايكل الذي لم يكن يشكو فقط من إعاقة عقليّة، بل من شلل دماغيّ خطير أيضًا، كان بحاجة إلى المساعدة في كلّ حركة يقوم بها. وجون الذي كان يعاني من تناذر داون ويستطيع قضاء حاجاته إلى حدّ ما، كان يتطلّب مع ذلك اهتمامًا ودعمًا عاطفيًّا. وروي الذي كان بأعوامه الثمانين أكبر النزلاء سنًّا في التجمُّع، كان بحاجة متواصلة إلى الدعم الجسديّ والعاطفيّ. إنّ منزل نيو هاوس الذي ضمّ خمسة أو ستّة مساعدين وخمسة أعضاء مركزيّين، هو مكان لا يهدأ العمل فيه، والمساعدون العديدون الذين عاشوا وعملوا هناك لم يروا آدم بالطريقة التي وصفتُه بها. وفي الوقت نفسه، فإنّ ما منعهم من اعتبار أنفسهم مجرّد مسؤولي نظافة وطبّاخين وأشخاصًا يغيّرون الحفاضات ويغسلون الأطباق، كان الإحساس بأنّ آدم وروزي ومايكل وجون وروي الموجودين في عهدتهم، لديهم الكثير ليقدّموه إليهم مقابل ما يأخذونه منهم. فالعديد من هؤلاء المساعدين لامسوا لغز حياتهم الخاصّ، واختبروا تجدّدًا في ذواتهم، لأنّهم، بشكل أساسيّ، استطاعوا تقبُّل بعض النعمة الروحيّة من الأشخاص الذين كانوا يقدّمون إليهم الرعاية.



إنّ الكلام على «نعمة آدم» ليس تصويرًا رومانسيًّا لوضعيّة حياتيّة كان يمكن أن تكون، لولا ذلك، متعبة وغير مجدية. كانت نعمة آدم واقعًا حياتيًّا يوميًّا. وعندما كانت جين ود.ج. وبقيّة المساعدين يجتمعون صباح كلّ يوم إثنين لمناقشة الأسبوع الذي انقضى والأسبوع الذي يليه، كان السؤالان الرئيسان دائمًا هما: «ما الذي كان صعبًا عليك هذا الأسبوع؟». و«ما هي النعمة التي قدّمتَها والنعمة التي حصلتَ عليها؟». وبين جميع التفاصيل المتعلّقة بتنظيم الوجبات، وأعمال التنظيف، وزيارات الأطبّاء، والتسوُّق، والتصليحات، وواجبات أخرى لا تُحصى، ظلّ السؤال المتعلّق بالنعمة الخاصّة بكلٍّ من آدم وروي ومايكل وروزي وجون، السؤالَ المركزيّ. كان الجميع يدركون أنّهم لن يظلّوا مساعدين صالحين في السفينة لفترة طويلة إذا لم تكن المكافأة مجزية، مكافأة النعمة الروحيّة من أناس مثل روزي وجون. كانوا يكتشفون أنّ الرعاية الحقيقيّة هي رعاية متبادلة. ولو كانت مكافأتهم الوحيدة هي الراتب الهزيل الذي يحصلون عليه، لتحوّلت رعايتهم سريعًا كي تصبح أشبه بإجراء صيانة للبشر. ولم يكن الأمر ليقتصر على إحساسهم بالملل والتعب والإحباط، بل إنّ آدم وشركاءه الآخرين لن تتوافر لديهم الفرصة لأن يهبوا نعمتهم أو ينجزوا رسالتهم أو يحقّقوا إمكاناتهم الإنسانيّة.

* * *

كان آدم والأعضاء المركزيّون الآخرون يعلنون البشارة. كان آدم لا يكفّ عن تذكيرنا بأنّ جمال تقديم الرعاية لا يقتصر على العطاء، بل يتجاوزه إلى التلقّي. كان آدم هو الشخص الذي جعل ذاتي تتفتّح لتدرك أنّ أعظم نعمة يمكنني تقديمها إليه هي يدي الممدودة، وقلبي المفتوح، لكي أتلقّى منه النعمة النفيسة والسلام. كانت هذه المقايضة تغنيني



www.faithandlight.wordpress.com

وتغنيه على حدّ سواء. كنتُ قادرًا على أن أكشف له أنّه يمتلك نعمة يمكنه تقديمها، وأنّ نعمته الحقيقيّة تتحوّل إلى نعمة عندما أتلقّاها أنا بترحاب. كان يقدّم نعمته من دون مقابل إلى كلّ مَن يصادفه، وقد تقبّلها كثيرون واغتنوا بها. فهو لم يكفّ عن «إخبارنا» أنّ الرعاية هي قبول بقدر ما هي عطاء، هي تقديم الشكر بقدر ما هي طلب الشكر، هي إثبات مقدرته على العطاء بقدر ما هي السعي إلى تحقيق الذات. رعاية آدم كانت تعني إتاحة الفرصة له ليرعانا مثلما رعيناه نحن. وعند ذلك فقط، كان آدم ومساعدوه ينمون بصورة متبادلة ومثمرة. عندها فقط لا تعود رعايتنا آدم عبئًا مرهقًا، بل تصبح امتيازًا، لأنّ رعاية آدم لنا تثمر في حياتنا.

ووسط تلك الرعاية المتبادلة، كان بوسع آدم أن يعيش حياة عامّة تتجاوز حدود «ديبريك». أحيانًا، كانت تحدث «معجزات حقيقيّة». ففي أثناء الفترة التي قضيتها في نيو هاوس، وبعدها، رأيتُ تغييرات ملحوظة طرأت على بعض الأشخاص كنتيجة مباشرة لاحتكاكهم بآدم.

حضر صديقي موراي Murray، وهو رجل أعمال من نيويورك متزوّج من سيّدة تدعى پيغي Péguy وأب لتسعة أطفال، جاء لزيارتي في «ديبريك». كان قد سمع عنّي من بعض الأصدقاء وقرأ العديد من كتبي. وعندما عرف أنّني سأترك الجامعة لأعيش مع أشخاص متخلّفين عقليًّا، أصيب بصدمة. أراد موراي بذل ما بوسعه لضمان عدم انقطاعي عن الكتابة. ونظرًا إلى كونه منغمسًا في عالم المال ولديه أصدقاء كثر ضمن هذا العالم، فقد اقترح تكوين مجموعة من الأشخاص تقدِّم إليّ منحة سنويّة تساعدني على متابعة الكتابة، بالرغم من متابعتي العمل خادمًا في أبرشيّة أهتمّ بأشخاص معوَّقين وأتقاضى راتبًا رمزيًّا.

وكثيرًا ما قال لي: «هنري، أنت لا تعرف شيئًا عن الشؤون



الماليّة. أنتَ كاتب. دعني أساعدك ماليًّا، وبإمكانك مساعدتنا بكتاباتك». كان موراي رجلًا شديد التديّن يؤرقه خوف انشغال أولاده بجني المال، وباللهاث خلف مِهَن مربحة لدرجة يفقدون معها التواصل مع إرثهم الروحيّ. وكان يقول لي: «عليك أن تحافظ على أولادي قريبين من الله».

قابلتُ موراي أوّل مرّة في نادي رياضة بمدينة نيويورك New York Athletic Club. وبعد ذلك بفترة قصيرة استقبلني مع زوجته بيغي في منزلهما الصيفيّ في إيرلندة. ولم ينقض سوى وقت قصير قبل أن أتعرَّف إلى معظم أفراد العائلة بمنزلهم في بيباك Peapack، بنيوجيرسي New Jersey. ولن أنسى مطلقًا جلوسي إلى طاولة العشاء مع اثني عشر شخصًا على الأقلّ، يترأّسها موراي من طرف وأنا من طرفها الآخر. بعد تلاوة صلاة المائدة قال موراي: «هنري، تحدَّث الآن إلى أولادي» - كانوا جميعًا في العشرينيّات والثلاثينيّات من العمر - «اجعلهم يتردّدون إلى الكنيسة مجدّدًا». وأظهر «الأطفال» وكانوا جميعًا رجالًا ونساء مثقّفين بالغي الفصاحة، تعاطفًا كبيرًا مع والدهم الذي كان يقصد خيرًا، لكنّهم لم يتورّعوا عن إعلامي وإعلامه بأنّهم لا يتوقّعون الكثير من التردّد إلى الكنيسة، هذا إذا توقّعوا شيئًا. تلا ذلك نقاش عنيف، وإن كان مشوبًا بالحبّ والحنان، كشف عن وجود قدر من التديّن حول المائدة يفوق ما كان يفترضه موراي.

تطوّرت الصداقة بيني وبين عائلة موراي. قلتُ له يومًا: «موراي، حان الوقت لتزورني في «ديبريك». تعال واقض معي بضعة أيّام». تردّد موراي. كان يشعر بأنّ مهمّته هي دفعي إلى الكتابة لا المشاركة في حياتي مع أشخاص معوّقين. والواقع أنّه كان يتساءل فيما لو كنتُ أضيّع وقتي مع هؤلاء «المساكين». لكنّني استطعتُ إقناعه ووافق على



www.faithandlight.wordpress.com

المجيء. وعندما أخبرته أنّني أريده أن يقيم معي في نيو هاوس، وأنّ غرفة الضيافة الصغيرة في القبو جاهزة لاستقباله، استولى عليه الارتباك الشديد. إقترح قائلًا: «أعتقد أنّني سأرتاح أكثر لو أقمتُ في فندق». لكنّني قلت بإصرار: «كلّا، سوف تحبّ الإقامة معنا، وستتاح لك مقابلة آدم».

مقابلة آدم لم تكن سبب قدوم موراي لزيارتي. لكنّه قَبِل اقتراحي على مضض. تناولنا العشاء في نيو هاوس في جوّ صاخب بهيج، وكان موراي لطيفًا مجاملًا وإن لم يتكلّم كثيرًا. تجوّل موراي برفقتي لبضعة أيّام، كان في أثنائها يقابل الأشخاص ويزور المنازل الأخرى و«يراقب» علاقتي بآدم. ولدهشتي الشديدة، بدا موراي مرتاحًا في المنزل. لم يقل الكثير لكنّه كان معي هناك.

في صباح أحد الأيّام جلستُ مع موراي إلى طاولة الفطور بهدوء، إلى جوار آدم. كان موراي يراقب كلّ حركة من حركاته، ويراقبني وأنا أسنده لرفع ملعقته إلى فمه، ولإمساك كوب عصير البرتقال. فجأة جاءتني مكالمة هاتفيّة تطلب إليّ الحضور إلى المكتب. أخبرتُ آدم بسرعة أنّني مضطرّ إلى الذهاب على عجل لكنّه سيكون في أيد أمينة. ثمّ قلتُ لموراي: «عليَّ أن أذهب لفترة. لماذا لا تساعد آدم في إنهاء فطوره، بعد ذلك سيقوم المساعدون بإعانته على الشروع في العمل». قال موراي: «لا بأسَ». بالرغم من أنّني لم أكن أدري مدى القلق الذي كان يتآكله.

أخبرني موراي لاحقًا أنّه في أثناء الدقائق الثلاثين التالية، وإبّان جلوسه مع آدم، بدأ يتعرّف إليه لا كشخص معوّق يختلف عنه كلّيًّا، بل ككائن إنسانيّ جميل يشترك معه في العديد من نقاط الضعف. فبالرغم من أنّ موراي كان رجل أعمال ناجح، كانت له صراعاته الخاصّة،



ومخاوفه الخاصّة، وتجاربه الخاصّة مع الفشل، ومكامن عجزه الخاصّة. كان الجلوس إلى جوار آدم ومساعدته على تناول فطوره، لحظة نعمة ربّانيّة في حياة موراي، فقد أدرك أنّه وآدم شقيقان. سقطت كلّ مسافة بينهما، وتفجّر نبع من الحنان العميق في قلب موراي، وانعقدت رابطة وثيقة بآدم الذي جذبه إليه ووهبه الضياء. كان اليوم التالي يومًا جديدًا بحقّ في حياة موراي. فقد أخبرني لاحقًا كيف أخذ يتجوّل يملؤه إحساس جديد بأنّه أصبح مقبولًا ومحبوبًا ومقدَّرًا حقّ قدره لا من قِبَل آدم فحسب، بل من قِبَل الجميع في نيو هاوس.

كان لزيارة موراي إلى «ديبريك» الكثير من النتائج المثمرة في حياته، فقد جعلته يتفتّح لقبول ضعفه وإخفاقه، وليكون أقلّ عدائيّة تجاه أفراد عائلته وأصدقائه. وممّا لا شكّ فيه أنّ هذه الزيارة عمّقت الصداقة بيننا. فمنذ أن قام بها، صار موراي يتحدّث عن آدم بكثير من الحبّ، وكان كلّما اتّصل بي هاتفيًّا يسألني: «كيف حال آدم؟...».

بعد أربعة أعوام من رحلته إلى تورنتو، أصيب موراي بنوبة قلبيّة مفاجئة قاتلة. وكانت وفاته خسارة مؤلمة لبيغي ولأولاده ولعائلته ولأصدقائه ولي أنا شخصيًّا. في أثناء إلقائي كلمة في الصلاة التي أقيمت لراحة نفسه، تذكّرت أنّ آدم كان قد قام بدورٍ مهمّ في مساعدة موراي على مواجهة نقاط ضعفه بدرجة أقلّ من الخوف، وهو بذلك هيّأه للسير في دربه الأخير نحو الله.

* * *

قصّة موراي ليست الوحيدة من نوعها. فقد تأثّر عدد لا يحصى من الأشخاص الذين جاؤوا إلى نيو هاوس لمدّة أسبوع، أو يوم، أو حتّى لساعات معدودة، بعمق الحضور الجميل والهادئ لآدم. أخبرني بعضهم أنّهم عندما عادوا إلى موطنهم، ظلّوا يفكّرون فيه ويتحدّثون عنه



www.faithandlight.wordpress.com

لأصدقائهم. كانت مقابلاتهم مع آدم غالبًا ما تتحوّل إلى تجارب للتجدُّد الداخليّ، لأنّه كان يتيح لهم الفرصة والسياق للتفكير على نحو مختلف في حياتهم وفي أهدافهم وطموحاتهم. لقد وفَّر آدم لمَن قابلهم حضورًا وحيِّزًا آمنًا يتعرّفون فيه على مكامن عجزهم الخاصّة التي غالبًا ما تكون خفيّة، فيتقبّلونها. كان يشعّ سلامًا من مركزه، وهو ما وفّر الدعم للأشخاص الذين كانوا يمرّون بلحظات عصيبة، أو الذين كانوا يواجهون خيارات صعبة. لم تكن التجربة هي ذاتها لجميع مَن قابلوا آدم. فعند بعضهم كانت التجربة تجربة سلام؛ وعند آخرين كانت تجربة مواجهة الذات؛ وكانت عند فئة ثالثة إعادة اكتشاف وجدانهم؛ وهناك مَن لم تعنِ التجربة بشيء.

كانت خدمة آدم فريدة من حيث إنّ آدم بدا غير واعٍ لكلّ ما كان يجري حوله ومن خلاله، لأنّه لم يكن يدرك أيّ شيء عن الرعاية أو الخدمة أو الشفاء أو المساعدة. كان يبدو مجرّدًا من المفاهيم أو المخطّطات أو المقاصد والطموحات. كان، بكلّ بساطة، حاضرًا يقدّم ذاته بسلام، خليَّ النفس تمامًا، بحيث كانت ثمار كهنوته طاهرة ووفيرة. وبإمكاني أن أشهد أنّ الكلمات التي قيلت عن يسوع يمكن أن تقال عن آدم: «وكلّ مَن كان يلمسه كان يشفى» (**مرقس ٦: ٥٦**).

كان آدم معلّمًا حقيقيًّا وشافيًا حقيقيًّا. وكان الشفاء على يديه شفاءً داخليًّا يبشّر أولئك الذين كانوا بالكاد يعترفون بجراحاتهم، يبشّرهم بالسلام والشجاعة والفرح والحرّيّة. كان آدم يقول لكلّ منّا، بعينيه وبحضوره: «لا تخف. لستَ بحاجة إلى الهرب من آلامك. أنظر إليّ، اقترب منّي، وسوف تكتشف أنّك الطفل الأثير لله، مثلي أنا».

ولهذا، فإنّني لا أعتقد أنّ من قبيل المبالغة القول إنّ «ديبريك» كانت موقع الكهنوت العلنيّ لآدم. وأنا أعتقد جازمًا أنّ آدم، شأنه شأن



يسوع، أُرسل إلى العالم لتحقيق رسالته الفريدة. ففي أثناء السنوات التي قضاها في بيته مع عائلته، عاش الحبّ المتبادل، وكان ينمو بالجسد في الوقت الذي كان فيه يقوم بتحويل والديه. كان ذلك بمثابة التحضير. في «ديبريك»، كان لنِعَمِه وتعاليمه وعلاجه تأثير عميق في العديد من الأشخاص الذين أتوا ليشاركوه حياته، وفي الذين أتوا لزيارته، أو للعيش في منازل أخرى من التجمّع.



www.faithandlight.wordpress.com

## الفصل الرابع

# طريقة آدم

إبّان السنوات الإحدى عشرة التي عاشها آدم في نيو هاوس، جاء إلى المنزل الكثير من المساعدين وغادره كثيرون. كان بعضهم من كندا والولايات المتّحدة الأميركيّة، وكان آخرون من أستراليا وألمانيا والبرازيل وبولندة وأوكرانيا والعديد من الدول الأخرى. كانوا غالبًا ما يأتون لعام أو لعامَيْن ليستكشفوا توجُّهًا جديدًا في الحياة، وليعيشوا تجربة «مختلفة» بعيدًا عن الوطن. بعضهم وجد نداءه الروحيّ الدائم في السفينة، لكنّ بعضهم تابعوا حياتهم، وأصبحوا محامين أو موظّفي خدمة اجتماعيّة أو معالجين نفسيّين أو ممرّضات أو رجال ونساء أعمال.

وبالإضافة إلى هؤلاء، جاء كثيرون بهدف الزيارة. فمنزل نيو هاوس، بالرغم من أنّه من أكثر منازل «ديبريك» انشغالًا، فإنّه من أحسنها وفادة. فالدعوة المألوفة هناك هي: «تعالوا الليلة لنتعشّى معًا». وهناك العديد من الأشخاص الآتين من منازل أخرى في «ديبريك» أو من مدن وبلاد بعيدة، ممَّن ينضمّون إلى الأعضاء لتناول وجبة ويختبرون مشاعر الألم والمباهج التي تعيشها هذه الأسرة الفريدة. تزيَّن المائدة غالبًا بالزهور والشموع، ويكون الطعام مُعَدًّا بعناية كبرى مع أخذ متطلّبات الحمية المتعدّدة بالاعتبار. في غالب الأحيان تتلو



www.faithandlight.wordpress.com

الوجبة أحاديث شائقة وصلوات وأغان وموسيقى. ويندر أن يكونَ أقلّ من اثني عشر شخصًا حول الطاولة، وهناك غالبًا عدد أكبر بكثير.

إبّان الفترة التي قضاها آدم في نيو هاوس، لا بدّ وأنّه قابل مئات الأشخاص. وهناك العديد من الوافدين الجدد ممَّن شعروا بالارتباك، وحتّى بالخوف للوهلة الأولى، بعد مقابلة الأعضاء المركزيّين الذين كانوا يختلفون عنهم بصورة واضحة للعيان. لكنَّ قضاء ساعة حول طاولة العشاء كان كفيلًا بإزالة معظم ما يشعرون به من توجّس، ولا يزال معظم الذين قدموا إلى نيو هاوس يذكرون آدم على أنّه مركزٌ هادئ للمنزل. كان آدم يترك انطباعًا في قلوبهم وأذهانهم بطريقةٍ أو بأخرى. وكانوا كثيرًا ما يكتبون رسائل تقول: «أخبر آدم أنّني أحبّه»؛ «قبّله وعانقه عنّي»؛ «أخبره بأنّني أفكّر فيه وفيكم جميعًا».

كانت طاولة العشاء في نيو هاوس هي المكان الذي حدثت فيه معظم «معجزات» آدم. من الواضح أنّه لم يفعل شيئًا، كان حاضرًا وحسب. لكنّ «حضوره» كان يلامس قلوب الناس ونفوسهم بعمق. لم يكن هناك حوادث شفاء مفاجئة، ولا تغييرات فوريّة في المشاعر، ولكن كان هناك الاكتشاف أنّه، وأنّنا، والعالم أجمع قد اكتسبنا معنى جديدًا، ومغزًى جديدًا، وهدفًا جديدًا.

كانت بعضُ معجزات آدم شخصيّة وعميقة داخل النفس بحيث لا يمكن التعبير عنها بالكلمات. بعض تلك المعجزات كانت تحدث بعد شهور أو سنوات من زيارة الشخص. وبعضها الآخر تطلَّب من الشخص تغييرًا جذريًّا. وما زلت أذكر سيّدة جاءت لزيارة نيو هاوس، حيث سارت مباشرة باتّجاه آدم وقالت: «يا للرجل المسكين، لماذا حدث ذلك معك؟... دعني أصلّي لك لعلّ الله العزيز يشفيك». ثمّ أشارت إلى المساعدين ليشكّلوا دائرة صغيرة تحيط بآدم من أجل



الصلاة. ربّت أحدهم على كتفها بلطف وقال لها: «آدم ليس بحاجة إلى الشفاء، إنّه في أحسن حال. إنّه يشعر بالسعادة كونك جئتِ لتناول العشاء. إنضمّي إلينا رجاء على المائدة». لا أدري إن كانت تلك الزائرة جاهزة بأيّة صورة في تلك اللحظة، لكي تتأثّر بآدم ولكي ترى كماله وقداسته في ضعفه، لكنّها أدركت من دون شكّ أنّ الجميع في نيو هاوس كانوا سعداء جدًّا بآدم كما هو عليه.

وما من شكّ في أنّ «طريقة» آدم في الوجود والعيش تركت أثرًا عميقًا في حياة الأشخاص الذين قابلوه، ولا أستثني نفسي هنا. وتحضرني ثلاث قصص تهمّ الأب برونو، وصديقتي كاتي، وأنا.

* * *

بعد نحو عام من عملي خادمًا روحيًّا دائمًا في «ديبريك»، وانتقالي للعيش في منزلنا الصغير وفي كنيسة صغيرة تدعى ديسبرينغ Dayspring، قدم إلى المكان كاهن في أواسط العمر ليقضي إجازةً لسنة. كان الأب برونو قد أنهى لتوّه مدّة ثمانية عشر عامًا رئيسًا لدير الرهبان الكامَلدُول Camaldolese في Big Sur بكاليفورنيا، وكان بحاجة إلى بعض الوقت يقضيه بعيدًا عن مجتمعه الصغير. كان رجلًا طويل القامة، نحيل الجسم ذا لحية قصيرة، وعينَيْن وديعتَيْن، وطبعًا مسالمًا، رقيق الصوت، خجولًا يلتزم الصمت غالبًا. كان راهبًا بحقّ. لماذا اختار المجيء إلينا؟... سمع بتجمّع «ديبريك» وخطر له أنّه ربّما كان المكان المناسب للتحوّل من رجل يمسك بزمام السلطة إلى راهب عاديّ. كان يرغب في المشاركة في حياة الأشخاص المعوَّقين. وإبّان إقامته التي دامت ثلاثة أشهر، عاش معنا في نيو هاوس. بُعَيْد وصوله كنتُ غالبًا ما أراه في الشارع الفرعيّ وفي الطريق العامّ يدفع المقعد المتحرّك الذي يجلس عليه آدم. وبما أنّه لم يكن مساعدًا عاديًّا، بل



www.faithandlight.wordpress.com

ضيفًا مقيمًا، كان لديه الكثير من وقت الفراغ، وقرّر أن يقضيه مع آدم. وبدا أنّ الاثنين كانا يستمتعان واحدهما بالآخر.

عند رؤيتهما معًا، كنتُ أفكّر: «هل يمكن لآدم أن يحظى برفيق أفضل من هذا الراهب الهادئ المسالم!... أليست حياة آدم شبيهة بحياته؟... السلام يتحدّث إلى السلام. العزلة ترحّب بالعزلة. الصمت يتواجد مع الصمت. يا لنعمة الله!...».

جاء برونو يومًا لزيارتي في غرفتي. سألته: «كيف تسير الأمور بينك وبين آدم؟...». نظر إليّ بعينَيْن تفيضان بالعجب والبهجة، وقال: «لا شكّ في أنّ آدم هو نعمة في حياتي. إنّه يعلّمني كيف أغدو راهبًا أفضل». أجبته: «أعتقد أنّني أفهم ما تعنيه، ولكن، هل لك أن تحاول شرحه لي؟...».

لم يكن برونو ممَّن يتكلّمون بإسهاب. كان يحسّ بالأمور بعمق ويفضّل الصمت عن التكلّم عليها. لكنّه مع ذلك كان يرغب في شرحه ما كان يختبره مع آدم. قال لي: «حاولتُ لسنوات عدّة أن أعيش حياة روحيّة، كما حاولتُ مساعدة الآخرين على أن يعيشوها أيضًا. كنتُ دائمًا أشعر بأنّ عليّ إفراغ ذاتي من أجل الله، وعليَّ أن أتخلّص تدريجيًّا من الأفكار والانفعالات والمشاعر والآلام التي تحول بيني وبين ما أرغب فيه من صلة حميمة عميقة بالله. عندما قابلتُ آدم، قابلتُ الرجل الذي اختاره الله ليقودنا إلى مستوى أعمق من تلك الصلة. وعندما أقضي الساعات الطوال مع آدم، أجد نفسي أنسحبُ إلى عزلة أعمق. في قلب آدم، لمستُ امتلاء الحبّ الإلهيّ».

لم أستطع منع نفسي من التفكير في آدم، وكيف أن حقيقته وحياته كانتا السبب وراء تجربة برونو الروحيّة الاستثنائيّة. في شخص آدم، وجد الراهب الديريّ الرئيس على عدّة رهبان، مرشدًا ومعلّمًا روحيًّا.

* * *



مع مرور السنين، بدأتُ أفكّر في آدم الإنسان الذي يمكنه مساعدة الأشخاص الذين لم أتمكّن من مساعدتهم. إزداد عدد الأشخاص الذين كانوا يتوافدون إلى «ديبريك» للاعتزال أو لتلقّي الإرشاد الروحيّ، أو لمجرّد الاستمتاع بقليل من السكون في حياتهم الصاخبة. كانوا أحيانًا يأتون وهم يحملون معهم صراعات عنيفة، آملين في مقابلة شخص يقدّم إليهم وجهة نظر مختلفة أو راحة النفس، أو حتّى شفاء من نوع ما. حاول عديدون ضمن مجتمعنا الصغير تلبية احتياجات زوّارنا العديدين، وكانت دهشتنا تزداد عندما نلاحظ كيف يمكن لأيّام قليلة من الصمت والتوجيه الروحيّ السديد، ضمن مجتمع مفعم بالحبّ، أن تكون مصدرًا للعون.

لكنّنا كنّا نتساءل أحيانًا إن كانت توقّعات الناس تتجاوز الحدّ الممكن. وفي إحدى تلك الحالات، كانت لآدم اليد الطولى في مساعدتنا. وها هي قصّة كاتي.

في أحد الأيّام، دخلت سيّارة طويلة فارهة، نوافذها لا تسمح برؤية الأرض المحيطة «بديبريك». شعر كثيرون ممَّن شاهدوا السيّارة بالحيرة والعجب. ما الذي يدعو شخصًا يتجوّل بسيّارة كهذه للمجيء إلى «ديبريك»؟...

عندما توقّفت السيّارة أمام مبنى ديسبرينغ، ترجّلت منها سيّدة شديدة النحول وقالت: «أنا كاتي. لقد جئتُ من مدينة نيويورك وأحتاج إلى المساعدة في بعض المشاكل التي أواجهها». إستقبلتُها مع الأخت سو موستيللر Sue Mosteller، مضيفة ديسبرينغ، وأدخلناها المنزل وسألناها: «كيف يمكننا مساعدتك؟..».

قالت: «سأتكلّم بصراحة. أشعر بكآبة شديدة. تردّدت إلى طبيب نفسي لعدّة سنوات من دون أن يتمكّن من مساعدتي. بل على العكس،



www.faithandlight.wordpress.com

ازدادت أحوالي سوءًا. ولذلك قال لي شقيقي، وكان قد سمع «بديبريك»: لماذا لا تذهبين إلى هناك؟... ربّما كان بوسع العاملين هناك مساعدتك، وها أنذا». كان عمرها لا يقلّ عن سبعين عامًا، وكانت تتمتّع بوجه جميل وعينين تتألّقان حيويّة وترتدي ثيابًا بالغة الأناقة والترتيب، كما كانت تبدو رابطة الجأش. ما سبب الكآبة؟...

قالت سو: «هل لك أن تخبرينا المزيد؟... هل ثمّة أحداث معيّنة أطلقت شعورك بالكآبة؟...».

أجابت كاتي: «نعم، قد يبدو الأمر غريبًا لكما، لكنّني في كلّ مرّة أنظر فيها إلى صفحة المجتمع في صحيفة *New York Times* وأقرأ أسماء الأشخاص المدعوّين من قِبَل رئيس الولايات المتّحدة الأميركيّة والسيّدة الأولى إلى البيت الأبيض لتناول الغداء، أشعر بالاكتئاب لأنّ اسمي ليس بينهم».

إلتقت نظراتي بنظرات سو. كان ذلك أمرًا غريبًا علينا معًا.

تابعتْ كاتي: «أنا دائمًا أقارن نفسي بالآخرين، ومع تقدّمي في السنّ أكتشف تزايد عدد الأشخاص الذين ينسونني. وعندما أرى أنّ أناسًا لا يملكون نصف ما أملك من المال، أو لا يتمتّعون بنصف العلاقات الاجتماعيّة التي أتمتّع بها، مرغوبون أكثر ممّا أنا مرغوبة، تتملّكني الكآبة الشديدة».

حينذاك، بدأتْ كاتي تحكي لنا عن حياتها وعن زواجها برجل ذي شأن وعن أطفالها، وطلاقها، وزواجها الثاني، وحياتها الاجتماعيّة الصاخبة، وعلاقتها بالكنيسة، وأعمالها الخيريّة، وشهرتها. روت لنا كلّ ذلك بأسلوب مباشر وصادق وقد تخلّلته روح الدعابة. قالت: «الناس يتوقّعون دائمًا أن يحصلوا منّي على



نقود. عندما يضيع منّي أيّ شيء، أنذر للقدّيس أنتوني (أنطونيوس) أنّني سأهب الكنيسة ألف دولار عندما أجد الشيء الضائع. الآن عندما أذهب إلى الكنيسة لحضور القدّاس، يسألني القسّيس: «كاتي، هل أضعتِ شيئًا هذا الأسبوع؟...».

رويدًا رويدًا بدأت تتكشّف لنا صورة غير مألوفة ولكن مأسويّة. كانت أمامنا سيّدة تتمتّع بكلّ ما يحلم به أيّ إنسان: مال، شهرة، علاقات اجتماعيّة، وقوّة بالغة. تتساءل إن كان هناك مَن يحبّها حقيقة. كانت غنيّة لكنّها تستحقّ الرثاء، مشهورة لكنّها تفتقر إلى الثقة بنفسها، رفيعة الشأن لكنّها ضعيفة.

قالت سو: «كاتي، ألا تعتقدين أنّك إنسانة صالحة لمجرّد كونك كاتي؟...».

إغرورقت عيناها بالدموع، وقالت: «لا أعلم. أنا لا أعلم حتّى مَن أكون بدون جميع تلك الأمور المحيطة بي. لا أعلم ما معنى أن يحبّني الناس لأنّني، بكلّ بساطة، كاتي. وهل سيحبّونني؟... أنا لا أنفكّ أتساءل باستمرار».

على حين غرّة، فهمتُ كآبتها. كانت كاتي تردّد السؤال الذي نطرحه جميعًا: لو عَرَفَنا الناس على حقيقتنا، بدون كلّ ذلك الزخرف الدنيويّ الذي جمعناه، هل سيظلّون على حبّهم إيّانا؟... أم إنّهم سينسوننا لحظة لا تعود لهم حاجة إلينا؟... ذلك هو السؤال المركزيّ للهويّة: هل نحن صالحون بسبب ما نقوم به أو نملكه، أو بسبب مَن نكون؟... هل أنا شخص ذو شأن لأنّ العالم جعلني كذلك، أم إنّني شخص ذو شأن لأنّي كنتُ أنتمي إلى الله قبل زمن بعيد من انتمائي إلى العالم؟ لقد حدثَ الكثير في حياة كاتي بحيث فقدَتْ التواصل بالإنسانة الأصليّة البسيطة المحبوبة التي كانتها.



www.faithandlight.wordpress.com

كنتُ أنا وسو كلّما تحدّثنا إلى كاتي، ازددنا قناعةً بعدم جدوى أيّ برهان في مساعدتها على حبّ ذاتها. والواقع أنّنا لم نكن نجد أنفسنا متحرّرَيْن تمامًا من الأحابيل التي تحدّثت عنها كاتي. فقد أثّرت بنا نحن أيضًا ثروتها وشهرتها. هل ستتمكّن من تقبُّل ذاتها الروحيّة الحقيقيّة منّا نحن؟... لن يطول الأمر بها قبل أن تبدأ بالتفكير فينا، كما تفكّر في الآخرين جميعًا، مستغلّين محتملين. وعندما بدأتُ أعي صعوبة تحرّر كاتي من سجنها الاجتماعيّ، مرّ آدم في خاطري. فقد يكون الشخص الوحيد الذي لن يستغلّها بأيّ شكل من الأشكال. فهو لن يطلب إليها مالًا، وهو لم يكن يسعى إلى الشهرة، كما أنّه لم يكن بحاجة إلى ترك انطباع عند أيٍّ كان.

قلتُ لها: «كاتي، الليلة أنت مدعوّة إلى تناول العشاء في نيو هاوس. وسوف تقابلين هناك آدم وشركاءه في المنزل». بدت عليها الدهشة نوعًا ما. لماذا كان يتوجّب عليها تناول وجبة مع أشخاص معوَّقين في حين أنّها جاءت للحصول على مساعدة روحيّة. لمحتُ السؤال يتردّد في عينيها، بالرغم من أنّها ردّت بتهذيب: «يسعدني أن أذهب وأرى الأشخاص المساكين». في اللحظة الأخيرة قرّرتُ ألّا أذهب معها. أردتُها أن تكون الضيف الوحيد هناك.

عندما عادت كاتي من العشاء الساعة التاسعة مساء، كنتُ بانتظارها ويداخلني شيء من القلق بشأن ما إذا كنتُ قد أحسنتُ بإرسالها إلى نيو هاوس. لكنّها، عندما دخلتْ غرفة المعيشة، كانت تبدو مسترخية وسعيدة. قالت لي: «هنري،كان الأمر رائعًا. فقد شعرتُ بأنّني مقبولة وبأنّ هناك مَن يرعاني ويرحّب بي. أعتقد أنّهم أحبّوني فعلًا. ينبغي لي الاعتراف بأنّني شعرت بالخوف عندما طلبت إليَّ الذهاب، لكنّني كنتُ سعيدة تمامًا بوجودي هناك. كان الجميع



لطفاء وودودين، وقد لمستُ أشياء مشتركة بيني وبين آدم، ربّما لأنّني جلستُ إلى جواره وتمكّنتُ من مساعدته بعض الشيء. ما أجمله من رجل. الواقع أنّ الأمسية بكاملها كانت رائعة».

كدتُ لا أصدّق مدى التغيير الذي بدا في تعبيرات وجهها وفي عينيها. هذه هي زائرتنا المصابة بالكآبة؟... لاحظتُ أنّها كانت تحمل لوحًا من الشوكولا في يدها. فقلتُ لها: «هل ربحتِ الحلوى من جون؟...»

«نعم. فقد نهض جون بعد العشاء وألقى خطبة لم أفهم منها كلمة واحدة. ثمّ طلب إلى كلٍّ منّا أن يعطيه رقمًا وأن يذكر لون ملابسه. نفَّذنا ما طلب، نظر إلى ورقة في يده وأعلن أنّني كسبتُ الجائزة. ثمّ سار باتّجاهي وأعطاني لوح الشوكولا وقبَّلني. كدتُ لا أصدّق ما يحدث. لكنّني شعرت بمدى ترحيبهم بي بالرغم من أنّهم لا يعرفونني!...».

يا لها من نعمة ويا له من لغز!... واحدة من أغنى أغنياء العالم تشعر بالامتنان العميق لحصولها على لوح من الشوكولا. لقد استطاع آدم وجون وروزي وروي ومايكل أن يذكّروها بحقيقتها، إنسانة جميلة اسمها كاتي.

بعد عودة كاتي إلى نيويورك، اتّصلت بي وقالت لي: «لقد لاحظ زوجي أنّ أمرًا مهمًّا قد حصل معي في «ديبريك»، وأراد معرفة ماذا فعلنا عندما كنت هناك. أخبرته عن العشاء في نيو هاوس وعن آدم وجون ولوح الشوكولا. لم أعد أشعر بتلك الكآبة المروّعة التي كنتُ أشعر بها سابقًا. في داخلي الآن إحساس جديد بالله، وبحبّ الله إيّاي».



www.faithandlight.wordpress.com

في أثناء السنوات التي تلت، كنتُ أكلّم كاتي بالهاتف، وذهبتُ لزيارتها مرّتين. وكانت تؤكّد لي باستمرار: «لقد حدث شيء عميق في أثناء زيارتي لـ«ديبريك». لم أعد أشعر بالكآبة كالسابق، لأنّني أحسّ الآن بأنّني أكثر اتّصالًا بذاتي». وكنتُ على يقين من صدقها في ما تقول. تعرّضت كاتي لمصاعب جسديّة وعانت الكثير من الآلام، أمّا كآبتها فقد زالت.

عندما توفّيت كاتي بعد ثماني سنوات من زيارتها «ديبريك»، طلبت إليَّ عائلتها ترؤّس الصلاة على روحها. فكان اعتراضي: «ولماذا أنا؟ لقد كانت تعرف العديد من رجال الدين». لكنّ جواب العائلة كان: «نحن نريد أن تترأّس أنتَ الصلاة لأنّها كانت تشعر بالامتنان لك ولمجتمع ديبريك». قبلتُ المهمّة، وقلتُ لأفراد عائلتها ولأصدقائها العديدين الذين حضروا الجنازة إنّ الله بارك كاتي ليس في عطاياها وحسب، بل وفي فقرها أيضًا، نظرًا إلى رغبتها في الحصول على نعمة الشفاء من آدم وعلى لوح الشوكولا من جون. ولا أدري إن كانوا قد فهموا ما قلت، لكنّني أردتُ إخبار الجميع أنّ رجلًا شديد الفقر قد قام بعمل إعجازيّ لسيّدة شديدة الفقر.

* * *

هناك أخيرًا القصّة التي تحكي كيف وجّهتني طريقة آدم الحقيقيّة في الحياة، بل قادتني، إن صحّ التعبير، إلى إدراكِ حياتي الخاصّة إدراكًا أشدّ عمقًا. قضيتُ في نيو هاوس مدّة أربعة عشر شهرًا، كنتُ سعيدًا بوجودي هناك، وكانت علاقتي بآدم تقوى وتتعمّق بمرور الأيّام. لكنّ أيّامًا مؤلمة كانت بانتظاري. وكان ذلك آخر ما توقّعت حدوثه. فبعد سنوات عدّة قضيتها في التدريس، أصبح «ديبريك» منزلي، حيثُ كنت أعيش ضمن مجموعة وأقضي الوقت في العبادة وفي رعاية



«المساكين». كنتُ دائمًا أبحث عن مكان أشعر فيه بالأمان. فعلى الرغم من أنّ الجامعات التي درَّستُ فيها منحتني فرصة فريدة لتطوير أفكاري في الحياة الروحيّة، ولإشراك مئات الطلّاب في أفكاري، إلّا أنّها لم تمنحني المنزل. وقد منحتني إيّاه «ديبريك». كنتُ أشعر بأنّني بالمحبّة والتقدير، وبأنّ هناك مَن يرعاني، ولم يخطر ببالي أبدًا أن أتساءل إنْ كنتُ قد فعلتُ الصواب بالتحاقي بالسفينة.

وكان هناك شيء آخر يأخذ مساره. فالعيش قرب آدم والآخرين جعلني أقترب أكثر من مواطن ضعفي. فمع أنّه بدا واضحًا منذ البداية مَن هو المعوَّق ومَن هو السليم، لكنّ الحياة المشتركة يوميًّا ولمدّة طويلة جعلت الحدود تتلاشى إلى حدّ ما. صحيح أنّ آدم وروزي ومايكل كانوا عاجزين عن الكلام، لكنّني كنتُ أتكلّم كثيرًا. وصحيح أنّ آدم ومايكل كانا عاجزَيْن عن المشي، لكنّني كنتُ أركض هنا وهناك وكأنّ الحياة عبارة عن سلسلة من الحالات الطارئة. وصحيح أنّ جون وروي كانا بحاجة إلى العون في مهمّاتهما اليوميّة، لكنّني أنا أيضًا كنتُ أردّد باستمرار: «ساعدوني، ساعدوني». وعندما كانت تتوافر لي الشجاعة لأنظر في أعماقي، ولأواجه عَوَزي العاطفيّ، وعجزي عن الصلاة، ونفاد صبري، وضجري، ومخاوفي وقلقي، كانت كلمة «معوَّق» تأخذ معنى جديدًا بالكامل. إنّ كون إعاقاتي أقلّ وضوحًا من إعاقات آدم وشركائه في المنزل، لم يكن من شأنه أن يجعلها أقلّ واقعيّة.

بدأتُ أدرك أنّ الأمان الوديع داخل نيو هاوس كان يُضعف من الدفاعات الكثيرة التي بنيتُها حول معوقاتي الداخليّة. ففي هذا الجوّ المحبّ الحنون، الخالي من التنافس والرغبة في قهر الخصم وإحراجه، ومن الضغط الكبير الذي يدفع المرء لتميز نفسه، اختبرتُ



www.faithandlight.wordpress.com

ما لم أكن أستطيع رؤيته أو اختباره سابقًا. واجهتُ شخصًا قلقًا محتاجًا ضعيفًا هو أنا بنفسي. عندما نظرتُ إلى الأمور من تلك الزاوية الأكثر وضوحًا رأيتُ أنّ آدم هو الطرف الأقوى. فقد كان متواجدًا على الدوام، هادئًا يطفح بالسلام والاستقرار الداخليّ. بدا لي آدم وروزي ومايكل وجون وروي وكأنّهم يمثّلون النواة الصلبة في مجتمعنا.

في نهاية العام ١٩٨٧، شعرتُ بأنّني مقبل على مواجهة أزمة. أصبح نومي مضطربًا، تؤرق مضجعي صداقة بدت سابقًا مصدرًا للحياة، لكنّها تحوّلت تدريجيًّا إلى علاقة تكتم الأنفاس، وكأنّ الألواح التي كانت تخفي لجّة أهوائي قد انتُزِعت، وبتّ أنظر في واد سحيق مليء بالوحوش الضارية التي تترصّدني لكي تلتهمني. وجدتُ نفسي وقد عصفتْ بي مشاعر أليمة من الهجران والرفض والحاجة والاتّكال على الآخرين والقنوط. كنتُ هنا، في أكثر المنازل هدوءًا، أعيش مع أكثر الأشخاص مسالَمة، يتآكلني الغضب والغيظ.

أفضيتُ بدخيلة نفسي إلى قلّة من الأشخاص في مجتمعي الصغير، مواربةً في البدء ثمّ مباشرةً وبشكل صريح. وسرعان ما وجدتُ نفسي أتحدّث إلى طبيب نفسيّ. كان جواب الجميع واحدًا: «آن لك الأوان لتواجه شياطينك الداخليّة. أزِف الوقت لتضمد جروحك، لتترك للآخرين فرصة رعايتك».

كان الاقتراح مهينًا. فقد توجَّب عليّ مغادرة نيو هاوس ومجتمعه الصغير إلى مكان أستطيع فيه معاناة كربي، بأمل العثور على قوّة جديدة وسكينة جديدة. ماذا كان يعني ذلك؟... لم أستطع أن أعرف. كنتُ قد جئتُ لأعيش ضمن جماعة ولأرعى آدم. ولكن كان عليّ في تلك اللحظة ترك آدم في رعاية الآخرين ومواجهة إعاقاتي الخاصّة.

كنتُ أواجه الصراع الإنسانيّ العميق المتمثّل في الإيمان بأنّني



محبوب حتّى ولو لم يكن لديّ ما أفخر به. لا شكّ في أنّني تركتُ الجامعة وما تعنيه من مكانة، لكنّ هذه الحياة منحتني الرضى والاكتفاء، بل جعلتني محطّ إعجاب. نعم، لقد كنتُ أُعتبر إنسانًا صالحًا، بل نبيلًا، لأنّني كنت أساعد المساكين. لكن الآن، وبعد أن انتُزِعَت آخر الركائز، واجهتُ تحدّي الإيمان بأنّني حتّى ولو لم يكن لديّ ما أبرهنه لنفسي، فإنّني أظلّ من أبناء الله المحبوبين.

إبّان الفترة التي عانيتُ فيها هذه المحنة العاطفيّة، أدركتُ أنّني بدأتُ أُشبِه آدم. فهو لم يكن لديه ما يفخر به، وكذلك كنتُ أنا. كان خاويًا تمامًا. وكذلك كنتُ أنا. كان بحاجة دائمة إلى الرعاية. وكذلك كنتُ أنا. وجدتُ نفسي أقاوم هذا «التحوّل إلى الشبَه بآدم». لم أكن أريد أن أصبح ضعيفًا أتّكل على الآخرين. لم أكن أريد أن أصبح بهذا الضعف. لكنّني أدركتُ، عند نقطة معيّنة، أنّ طريقة آدم، طريقة الهشاشة الكلّيّة، كانت أيضًا طريقة يسوع.

في أثناء الشهور التي قضيتُها بعيدًا عن «ديبريك» كنتُ أسمع - بعد كثير من الهداية - صوتًا داخليًّا رقيقًا ناعمًا يهمس: «أنتَ طفلي الحبيب، وفيك وضعتُ محبّتي كلّها». ظللتُ لمدّة طويلة لا أثق بهذا الصوت، وكنتُ أردّد في نفسي: «هذا كذب. أنا أعرف الحقيقة. ليس فيَّ ما هو أهل للحبّ». لكنّ المرشدين كانوا إلى جانبي، وكانوا يساعدونني على الإصغاء إلى الصوت، وعلى إفساح المجال له ليعلو. وعندما تمكّنتُ أخيرًا من الثقة بذلك الصوت، أصبحت مستعدًّا للعودة إلى منزلي في «ديبريك» واستئناف حياتي هناك.

لم يطلب إليّ القاطنون في التجمّع العودة إلى نيو هاوس أو استئناف رعاية آدم. لقد انتهى ذلك الوقت الحميم الذي كنتُ أقضيه في مساعدة آدم. شغل آخرون محلّي. دُعيت إلى توسيع عملي الكهنوتيّ



www.faithandlight.wordpress.com

لأصبح راعي أبرشيّة «ديبريك».

عندما أستعيد الماضي، أستطيع أن أرى علاقتي بآدم وقد اعتراها التغيير بعد عودتي. فقد كان آدم مرشدي ومعلّمي لمدّة أربعة عشر شهرًا. دفعني إلى أن أرسِّخ وجودي في مجتمع «ديبريك»، وفتح قلبي على نعمة الضعف، وقادني لأواجه هاويتي الخاصّة. والآن، وبعد اكتشافي صوت المحبّة داخل نفسي، وإحساسي بالثقة بهذا الصوت، لم أعد بحاجة إلى أن أكون مع آدم باستمرار. صار بإمكاننا أن نصبح صديقَيْن، عضوَيْن في المجتمع ذاته، رجلَيْن يسعيان معًا في رحلة باتّجاه الله. إلتقى فقري بفقره، وتعمَّقت علاقتنا.

ظلّت تجمعني صداقة خاصّة بقاطني نيو هاوس. وكنتُ كلّما سنحت لي الفرصة أذهب إلى هناك لتناول وجبة، وكانوا يجلسونني بجوار آدم. ولدى احتفاله بعيد ميلاده، كان المساعدون المسؤولون عنه يدعونني دائمًا إلى الحفل.

كنّا أنا وبدنو وكاتي ثلاثة فقط من بين أشخاص عديدين تقبَّلوا حقيقة آدم وحياته. وكما قال يسوع لفيليب: «الذي رآني فقد رأى الآب». وبهذا حظينا بامتياز الفوز بلمحة من وجود الله في آدم (**يوحنّا ١٤: ٩**). أعتقد أنّ الله أرسل آدم كما أرسل يسوع، ليكون واسطة النعمة، ومصدر الشفاء، وسببًا لفرحٍ جديد. كان صحيحًا، يبعث السلام، صامتًا وإن تنفّس بصخب، يحرّك أصابعه باستمرار، لا يعي إطلاقًا مدى تميّزه.

في مجتمعنا هذا، المُبتلى بالخوف، والقلق، والوحدة، والكآبة، والشعور بالضياع، نسعى من دون كلل إلى العثور على مرشدين. ونتوق بشدّة إلى أن يتمكّن شخص ما - معلّم روحيّ، أو مرشد، أو صديق - من مساعدتنا على التوصُّل إلى معنى ما للفوضى المحيطة بنا، وعلى



إنارة السبيل إلى الاكتمال الداخليّ والحرّيّة والسلام. وغالبًا ما نتّجه بأبصارنا نحو رجال ونساء مشهورين، من ذوي الحكمة، والنظرة النفسيّة المتعمِّقة، والحساسيّة الروحيّة، والتجربة الحياتيّة الحقيقيّة. قد تكمن المشكلة في أنّنا نتوقّع منهم الكثير، وفي أنّهم يرغبون في إعطاء الكثير، لنتحوّل إلى تابعين ويتحوّلوا هم إلى متحكِّمين.

كان آدم المرشد الأقلّ تحكُّمًا والأكثر اتّكالًا على الآخرين، من بين مَن صادفتُ من المرشدين. وقد يكون هذا ما دفعني إلى أن أثق بطريقته ثقة كبيرة. وفي اعتقادي أنّه اجترح معجزات مشابهة لمعجزات يسوع، لأنّه على وجه الدقّة لم يدَّع لنفسه أيًّا من تلك المعجزات. لم يطلب مالًا، أو شهرة، أو حتّى شكرًا. في عجزه الكلّيّ، كان آدم الوسيلة الطاهرة لقدرة الله على شفاء برونو وكاتي، وشفائي أنا على وجه الخصوص.



www.faithandlight.wordpress.com

## الفصل الخامس

# آلام آدم

كلمة ألم وتُجمع على آلام Passions مشتقّة من الكلمة اللاتينيّة Patior، وتعني «قاسى يقاسي - عانى يعاني معاناة Undergo». وهي ترتبط بكلمة «passive: سلبيّ، غير فعّال».

جاءت آلام يسوع بعد مرحلة حافلة بالنشاط. فقد ظلّ لسنوات يتنقّل بين قرية وأخرى، وبين مدينة وأخرى، يعظ ويدرِّس ويجيب عن أسئلة الناس، ويشفي المرضى، ويتصدّى للمُرائين، ٌويواسي المحزونين، ويعيد الحياة للموتى. كان حيثما ذهب يجد جموعًا حاشدة بانتظاره، تشعر بالإعجاب نحوه، وتصغي إليه، وتطلب مساعدته. ففي أثناء تلك السنوات المُجهدة، بل والمحمومة، كان يسوع يسيطر على الوضع. فقد كان يجيء ويذهب حسبما يتراءى له الصواب. وكان تلاميذه يتقبَّلون قيادته إيّاهم ويتبعونه حيثما ذهب.

ولكن في الجثمانيّة - حديقة الزيتون - توقّف كلّ ذلك النشاط بشكل مفاجئ. فهناك تمّ تسليم يسوع على يد أحد تلاميذه ليقاسي العذاب، وعندها بدأت آلامه. فاعتبارًا من تلك اللحظة لم يعد باستطاعته فعل أيّ شيء، وغدا هدفًا لكلّ ما يفعله الآخرون. تمّ اعتقاله، وأودع السجن، واقتيد ليمثل أمام هيرودس وبيلاطس، وجُلِد بالسَوْط، وكُلِّل بالشوك، وأُعطي الصليب ليحمله، وجُرِّد من ثيابه،


www.faithandlight.wordpress.com

وسُمِّر على الصليب، وتعرّض للهزء إلى أن مات. لم يعد باستطاعته التصرُّف. صار يتلقّى تصرّفات الآخرين. لقد كان ألمًا صرفًا.

السرّ العظيم في حياة يسوع هو أنّه لم يحقّق رسالته بالفعل، بل بالمعاناة، معاناة الألم. لا بما قام به هو، بل بما قام به الآخرون تجاهه. لا بقراره الخاصّ، بل بما قرّره الآخرون له. وكانت لحظة نزاعه على الصليب هي اللحظة التي صرخ فيها: «لقد تحقّقت».

كانت حياة آدم بكاملها آلامًا، حياة معاناة، قاسى فيها كلّ ما كان يرتكبه الآخرون بحقّه ومعه وحوله. كانت معاناته بصورة أساسيّة هي معاناة الاتّكال الكامل على أفعال الآخرين، وقراراتهم. لم يكن باستطاعة آدم سوى القيام بالقليل من المبادرات: كأن يقفز في سريره، أو يدفع بالمكنسة الكهربائيّة من أعلى الدرج، أو يرفع ملعقته أو كوبه. لكنّه لم يكن أبدًا ليقرّر إلى أين يذهب، أو مع مَن يتواجد، أو ماذا يفعل. عاش آدم كلّ لحظة من لحظات حياته ينتظر الآخرين ليتصرّفوا بالنيابة عنه.

سبق لآدم أن عاش بضع سنوات كان وضعه الصحّيّ في أثنائها متوازنًا، لكنّ السؤال الأساسيّ كان دائمًا: كيف يمكن التحكُّم بنوبات الصرع التي تنتابه؟ كان يعاني من النوبات بشكل يوميّ، وكانت تلك النوبات أحيانًا مرهقة إلى درجة تجبره على ملازمة الفراش لاستعادة قواه. وقد ساعدت الأدوية المضادّة للصرع على التحكُّم بالنوبات، لكنّ تلك الأدوية كان لها آثار جانبيّة ومساوئ أخرى. فقد أوهنت طاقته وجعلته يصاب بالإمساك والنعاس المستمرّ، وبمرور الوقت ملأت جسمه بالسموم. وكان من الواجب أن يتردّد إلى المستشفى من حين إلى آخر لإيجاد نوع من التوازن في أدويته. فعندما كان آدم يصاب بالتسمّم، كان يضطرّ إلى قضاء بعض الوقت في المستشفى تحت مراقبة



دقيقة، ليُتاح لطبيبه تحديد المقدار الصحيح من العقاقير المضادّة للصرع، ومدى قوّتها. الأمر الذي لم يفطن إليه أحد إلى أن شارفت حياة آدم على الانتهاء. ذلك أنّ المداومة على البرنامج الدوائيّ كانت تضعف قلبه.

* * *

نحن لا نعرف شيئًا عن العديد من آلام آدم وصراعاته الجسديّة، ولا عن أيٍّ من الآلام والصراعات العاطفيّة التي شعر بها. وقد يكون أحد أكبر أسباب معاناته هو أنّه لم يكن يستطيع إخبار أيّ شخص بما يزعجه. فعندما لاحظ ريكس وجين، مثلًا، سنّيْن من أسنانه انغرزتا داخل لثّته، استطاعا أن يتصرّفا بسرعة بهذا الشأن. لكن إدراك المشكلة عندما كان يستخدم سمّاعات الأذنَيْن، أو عندما أُعطي جرعة دوائيّة زائدة، كان أشدّ صعوبة بكثير. وكان ذلك يعني ضرورة التخمين لمعرفة أسباب انزعاجه الواضح.

كان وضع آدم الصحّيّ عمومًا سريع العطب لا يستقرّ على حال. فقد كان تنفّسه على الدوام متثاقلًا وغير منتظم. فمجرّد عمليّة التنفّس كانت تتطلّب منه جهدًا كبيرًا، وتفاقمت المشكلة مع التقدّم في السنّ. وعندما كان يصاب بالرشح أو بالأنفلونزا، كان عليه ملازمة الفراش لمدّة طويلة كي يستعيدَ قواه وطاقته.

في خريف العام ١٩٩٤، مرض آدم مرضًا شديدًا. ولم يتمكّن أحد من معرفة السبب، لكنّه أُخذ على عجل إلى قسم الطوارئ في مستشفى يورك المركزيّ في ريتشموند هيل. عندما وصلتُ بعد ذلك بقليل، كان ريكس وجين قد وصلا قبلي، وكانت آن بافيلونيس، مديرة نيو هاوس، تتحدّث إلى الممرّضات والأطبّاء. قالت لي آن عندما عادت: «إنّه مصاب بذات الرئة، الأطبّاء ليسوا واثقين بأنّهم سيتمكّنون



www.faithandlight.wordpress.com

من إنقاذه». تحلّقنا حول سرير آدم. كان جسمه موصولًا بعدّة شاشات مراقبة، وبدا غائبًا عن الوعي.

قالت آن: «الطبيب يسأل ريكس وجين إن كانا يوافقان على استخدام جهاز التنفّس الاصطناعيّ مع آدم عندما تصبح حالته حرجة». بعد ذلك تحدّثنا جميعًا عن هذا الشأن، وكان جواب ريكس وجين شديد الوضوح: «نريد لآدم أن يعيش أطول فترة ممكنة، وأن يعاني أقلّ قدر ممكن». كانا يريدان استخدام جهاز التنفّس كإجراء مؤقّت فقط. إذ إنّهما لم يستطيعا تخيُّل آدم يقضي ما تبقّى من حياته بفضل آلة كهذه. قالت جين: «لقد قاسى حتّى الآن ما يكفي».

لكنّ آدم لم يكن مستعدًّا للموت بعدُ. تحسّنت حالته في الصباح التالي، وبعد أسبوعٍ عاد إلى المنزل.

كانت تلك المرّة الأولى التي أدركُ فيها مدى ضعف صحّة آدم. لم يسبق لي قبل ذلك أن فكّرت جدّيًا في أنّني قد أخسره. كان لا يتجاوز الثالثة والثلاثين من عمره، ومع أنّه كان بحاجة إلى الكثير من العناية الطبّيّة، إلّا أنّه بدا قويًّا بحيث يعيش حياة مديدة. لكنّ آدم ظلّ ضعيفًا ولم يتعاف تمامًا من تلك الإصابة بذات الرئة. أدركنا أنّه كان مشرفًا على الموت، وأنّ علينا البدء بالتفكير في احتمال أن لا يعيش طويلًا. كان من الصعب علينا الاستمرار بالتفكير في ذلك الاحتمال، ولهذا كنّا نتناساه أحيانًا، باستثناء آن، وهي ممرّضة مسؤولة عن نيو هاوس. فقد كان آدم هو مركز ذلك المنزل، وكان تدهور صحّته شغلها الشاغل. أخبرها الأطبّاء أنّهم لا يستطيعون عمل أيّ شيء لمساعدة آدم على التحسُّن، لكنّهم لم يقولوا الكثير عن قلبه. تابعت الحياة مسارها، ولكنّ آدم ظلّ لعدّة أشهر عاجزًا عن الذهاب إلى برنامجه اليوميّ، وكان يقضي معظم وقته إمّا في الفراش، وإمّا جالسًا في مقعده المتحرّك في



قاعة الطعام، قلب المنزل. أخذ ريكس وجين، الوالدان المخلصان المحبّان، يُكثران من التردّد إلى المنزل عندما دخل ولدهما المراحل الأخيرة من آلامه.

كان المساعدون في منزله وفي برنامجه اليوميّ رائعين. فقد كان من الصعب عليهم تنظيم جدول للخدمة، بحيث يكون هناك دائمًا شخص ملازم لآدم، لكنّهم لم يتذمّروا من كونهم ضحّوا ببعض «أوقات فراغهم». كان كلّ منهم يقضي مع آدم ساعات طوال، يطعمه عندما أصبح أوهن من أن يأكل بنفسه، ويغيّر له ثيابه، ويستنبط الأساليب لكي يقدّم إليه الأطعمة الخاصّة التي كان يحبّها. أحيانًا، كان ضعف آدم المستمرّ الذي لم يُعرف له سبب يبعث في نفوسهم الخوف هم أيضًا، وبخاصّة لأنّهم كانوا مسؤولين عن رعايته مسؤوليّة مباشرة. كانوا جميعًا أشخاصًا صغار السنّ، ولم يسبق للعديد منهم التواجد قرب مرضى مزمنين أو مشرفين على الموت. وكانوا لا يكفّون عن التساؤل: «ماذا لو أصيب بنوبة ولم يصحُ منها؟... ماذا لو مات وكنتُ وحدي في المنزل؟... ماذا لو تهاوى وأنا أحمّمه؟... ماذا لو حدث أيّ شيء أثناء الليل؟... كانت تلك مخاوفهم الفعليّة التي تبدو وكأنّها تتركّز على ذواتهم أكثر ممّا تتركّز على آدم. لكنّهم كانوا بحاجة إلى الثقة ليتمكّنوا من أن يكونوا جاهزين لرعايته. مرّت الشهور من دون أن يطرأ على صحّة آدم سوى تحسّن طفيف، ولكن نظرًا إلى حدوث أيّة حالات طارئة، هدأت مخاوفنا قليلًا، واعتاد بعضنا صحّة آدم غير المستقرّة.

كان ريكس وجين ومايكل وآدم يقضون عيد الميلاد دائمًا فيما بينهم عائليًّا. فقد رسّخوا تقاليد معيّنة بمرور السنوات، وكانت تلك التقاليد مهمّة في حياتهم. في ليلة عيد الميلاد زيّنوا الشجرة وشربوا عصير التفّاح الحارّ، وتفحّص مايكل الهدايا التي لُفّت بشكل جميل



www.faithandlight.wordpress.com

ووُضعت تحت الشجرة. ثمَّة حدثان مهمّان يوم الميلاد: الهدايا والعشاء.

في دلك العام، كان آدم بالغ الضعف، لدرجة لا يستطيع معها الذهاب إلى منزل عائلته لقضاء عيد الميلاد. فبعد تناول عشاء يوم الميلاد، جاء مايكل ووالداه إلى نيو هاوس لزيارة آدم. وقضوا اليوم التالي للميلاد معًا في نيو هاوس. ولم يكن ذلك سهلًا لآدم أو لوالديه، إذ بدا واضحًا أنّ آدم كان مكروبًا ومتعبًا يتنفّس بصخب، وأنّ عيد الميلاد ليس عيد ميلاد في غيابه.

بعد ذلك بسنة، أي في عيد ميلاد العام ١٩٩٥، كان آدم قد عاد لتوّه من المستشفى بعد إصابته بنوبة أخرى من ذات الرئة، ومرّة أخرى كان ضعيفًا لدرجة لا يستطيع معها الذهاب إلى منزل والدَيْه. قرّر جين وريكس القدوم إلى نيو هاوس لقضاء عيد الميلاد مع مايكل وآدم. أحضرت جين معها كلّ شيء عدا الديك الروميّ، فقام جون ديڤيد صديق آدم والمساعد الذي يعمل معه، بطهي صدر ديك روميّ لآل آرنيت. غادر الجميع الغرفة لإفساح المجال للعائلة كي يتناول أفرادها العشاء معًا. وكان ما يربو على خمسةٍ وثلاثين من أعضاء المجموعة يتناولون العشاء بجوارهم في قاعة الطعام الواسعة لتجمّع «ديبريك». تستعيد جين ذكرى عيد الميلاد تلك قائلة إنّه كان أفضل من سابقه، لكنّ آدم كان واهنًا بالغ الضعف لدرجة رغبت معها في تركه جالسًا في مقعده وإطعامه بيدها. لكنّ ريكس قال إنّ آدم ربّما يكون راغبًا في الجلوس معهم إلى المائدة. عندما أصبح العشاء جاهزًا، أحضره والده إلى المائدة، واستمتع أفراد العائلة بتناول الوجبة معًا. كان آدم قادرًا على تناول الطعام بمفرده هانئًا بوجبته كالأيّام الخوالي.

* * *



لم تفلح كلّ تلك الجلبة المحيطة بآدم في التخفيف من آلامه. عاش في حالة من الاتّكال الكامل الكلّيّ على الآخرين. بدا متكيّفًا تمامًا مع الوضع، مستسلمًا تمامًا لأيدى الآخرين، وبدا في ضعفه المطلق مشعًّا بالنور والسلام. عندما أفكّر في الأمر حاليًّا، أدرك كيف أنّنا كنّا جميعًا نتجنّب مواجهة حقيقة أنّه كان يقترب من نهاية آلامه.

كانت آلام آدم في نظري علامة منبئة في الأعماق. فقد كانت حياته وآلامه، على نحو خاصّ، تتوجّه بالنقد بصورة أساسيّة إلى الأفراد الذين يخضعون لمعايير مجتمع تسيِّره الفرديّة والماديّة والنزعات الحسّيّة. إنّ اتّكال آدم الكلّيّ على الآخرين اقتضى ألّا يعيش حياة كاملة إلّا إذا كنّا نعيش في مجتمع يحتضن إنسانًا كهذا، مجتمع تسوده المحبّة. كانت الفكرة العظيمة التي علَّمنا إيّاها هي: «بإمكاني الحياة فقط إذا أحطتموني بحبّكم وإذا أحببتم بعضكم بعضًا، وإلّا، فإنّ حياتي ستكون عبئًا وسأشكِّل عبئًا عليكم». تحدّانا آدم بكلّ وضوح، لأن نثق بأنّ الشفقة، لا التنافس، هي السبيل لتحقيق النداء الإنسانيّ الداخليّ. وقد أجبرنا هذا التحدّي على إعادة النظر في الادّعاءات الأساسيّة لفرديّتنا ولحياتنا الموجَّهة إلى الأفعال.

والحقيقة هي أنّ الألم يحتلّ جزءًا كبيرًا، إن لم نقل الجزء الأكبر، من حياتنا. فبالرغم من أنّنا جميعًا نرغب في التصرّف بحرّيّة، وفي أن نكون مستقلّين مكتفين ذاتيًّا، فإنّنا نقضي شطرًا كبيرًا من الوقت معتمدين على قرارات الآخرين. وهذا لا يحدث في ريعان الشباب عندما نكون أغرارًا، أو عندما نتقدّم في السنّ ونصبح بحاجة إلى الآخرين وحسب، بل يحدث أيضًا عندما نكون أقوياء معتمدين على ذواتنا. هناك أجزاء لا يستهان بها من نجاحاتنا وثرواتنا وصحّتنا وعلاقاتنا تخضع لتأثير أحداث وظروف لا تتوافر لنا سوى إمكانيّة



www.faithandlight.wordpress.com

ضئيلة للتحكّم بها، هذا إذا توافرت. نحن نحاول الحفاظ على وهم الفعاليّة قدر استطاعتنا، لكنّ الحقيقة هي أنّ الألم في نهاية المطاف هو ما يحدّد مسار حياتنا. نحن بحاجة إلى الناس، الناس المحبّين العطوفين، لكي يؤازرونا في أثناء مراحل ألمنا، وبذلك يوفّرون لنا الدعم لإنجاز مهمّتنا. ففي اعتقادي، هذا هو المغزى الأهمّ لآلام آدم: دعوة أصيلة لكي نتقبّل حقيقة حياتنا، ونختار عطاء المحبّة عندما نكون أقوياء، وتقبُّل محبّة الآخرين عندما نكون ضعفاء، دائمًا بسكينة وسماحة نفس.



## الفصل السادس

# موت آدم

في أيلول/ سبتمبر من العام ١٩٩٥، بعد شهر من إصابة آدم بذات الرئة للمرّة الأولى، غادرتُ «ديبريك» في إجازة لمدّة عام. فقد كان العام السابق مليئًا بالاحتفالات لمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لإنشاء التجمّع، وشعرتُ بأنّي بحاجة إلى فترة راحة، فترة للكتابة، وإعادة النظر في العمق.

ولكن، لم يكن من السهل عليّ مغادرة مجتمع «ديبريك»، فقد نمت صلة قويّة ربطتني بالحياة اليوميّة للأعضاء المركزيّين والمساعدين المشرفين عليهم. كان قد مضى تسعة أعوام على قدومي إلى نيو هاوس وتعرُّفي إلى آدم. مع ذلك فإنّ الوقت قد كان للابتعاد قليلًا عن كلّ ذلك لتجميع السنوات التي قضيتُها في العمل الرعويّ، وللشروع في التفكير في المرحلة الأخيرة من حياتي.

بحلول موسم عيد الميلاد، وبينما كنتُ أقضي بضعة أسابيع في أوروبّا مع والدي البالغ ثلاثة وتسعين عامًا، تلقّيت رسالةً من آن بافِيلُونِس Ann Pavilonis تخبرني فيها أنّ آدم ليس على ما يرام. فهو لم يستطع الذهاب إلى منزل والديه للاحتفال بعيد الميلاد، ولم يستطع المشاركة في احتفالات التجمّع، وقضاء يوم الميلاد مع عائلته في نيو هاوس. أصبح آدم ضعيفًا، بحيث لم يعد يستطيع الذهاب إلى برنامجه



www.faithandlight.wordpress.com

اليوميّ. آن ممرّضة رائعة وقديرة، وقد أخبرتني أنّ: «الأطبّاء اكتشفوا أنّه يعاني من تضخّم في القلب، وهم لا يعتقدون أنّه سيعيش طويلًا. إنّه بالغ الضعف، نحن جميعًا نخشى الأيّام القادمة ونخشى أن نفقده... صلِّ من أجلنا لكي نستطيع أن نعيش هذه المرحلة كما يجدر بنا».

الأسابيع التي تلت كانت بالغة القسوة على آدم، وعلى والدَيْه وعلى كلّ شخص في نيو هاوس. تردّد آدم إلى المستشفى، ومكث في مرَّتين منها لمدّة أسبوع. قيل لي إنّ زميلَيْه في المنزل، روزي ومايكل اللذَيْن لا يستطيعان الكلام، قضيا تلك الفترة في عزلة تتملّكهما مشاعر الإشفاق على آدم. فقد عاش الثلاثة معًا لمدّة عشر سنوات، وكانوا وثيقي الصلة واحدهم بالآخرَيْن. أمّا روي وجون، ويبدو أنّهما يخشيان الموت، فقد عزفا عن الكلام على آدم، لكنّهما كانا يعرفان أنّ وضعه يسير من سيّئ إلى أسوأ، ويتابعان جميع الأحاديث المتعلّقة به والحركة الدائرة عليه بانتباه بالغ. أمّا المساعدون العاملون مع آدم فقد كانوا يرغبون في توفير الرعاية له داخل المنزل، لكنّ خطورة وضعه وتقلّبه من حال إلى حال جعلاهم يدركون أنّ ذلك لن يكون لصالحه أو لصالحهم.

* * *

في بداية شهر شباط/فبراير أُدخل آدم المستشفى بحالة خطرة. قال الأطبّاء لريكس وجين وآن إنّ قلبه مصاب بالإرهاق، وإنّ عضلاته متهتّكة. لم يكن بالإمكان إنقاذه سوى بعمليّة زرع قلب. جاء النبأ مفاجئًا وصاعقًا لوالدَيْ آدم، فالأطبّاء لم يذكروا سابقًا أنّ آدم يعاني من ضعف في قلبه، وبالتالي، لم يكن الوالدان يعيان مدى خطورة حالته. لم يكونا جاهزَيْن بعدُ لفكرة موته بهذه السرعة. تبادر إلى ذهن ريكس



جدّيًّا طلب إجراء عمليّة زرع قلب، لكنّه أدرك أنّ نوعية حياة آدم لن تتحسّن. وعندما تخلّى عن هذا الأمل الأخير، تعيَّن عليه مواجهة الحقيقة الصارخة الماثلة أمامه. صار ريكس وجين يقضيان معظم وقتهما في المستشفى يشجّعان آدم وهو يتنفّس ثمّ يتوقّف لدقائق طويلة ليعود بعدها إلى التنفّس مجدّدًا. كانا لا يكفّان عن الطلب إليه بأن يعيش وعن إخباره أنّ بإمكانه العيش. وكان آدم يُصغي ويبذل ما بوسعه استجابةً لدعوتهما المُحِبّة العميقة إلى العيش. صار المساعدون يتناوبون لقضاء الليل إلى جانب آدم، حتّى لا يظلّ وحيدًا.

في الصباح الباكر من يوم الإثنين، الثاني عشر من شهر شباط/فبراير، لاحظتْ آن أنّ شاشات المراقبة الموصولة بجسم آدم تُظهر خطوطًا مستقيمة. عندما وصل الطبيب لم تكن هناك نبضات قلب، لذلك أوقف عمل الأجهزة قائلًا إنّ آدم قد أصيب بسكتة قلبيّة وإنّه قد توفّي. قبل أن تغادر الممرّضة الغرفة، خَفَضت السرير حتّى تتمكّن آن من البقاء مع جثمان آدم وحدها. قالت لي آن: «بعد أن غادرا مباشرةً، رفعتُ السرير وبدأتُ أتحدّث إلى آدم. لا أستطيع أن أخبركَ ما قلتُ له لأنّني قسوتُ في الكلام، لكنّني أخبرته بوضوح وبكلمات لا لبس فيها أنّ والدَيْه لم يصلا بعدُ وأنّه، بكلّ بساطة، لا يستطيع الموت قبل قدومهما». كنتُ أعرف أنّهما في طريقهما إلى المستشفى. فركتُ صدره وتكلّمت إليه بصوت عال، وناديتُه لكي يصغي إليّ. بعد بضع دقائق، سحب آدم نفسًا عميقًا وعاد يتنفّس مجدَّدًا. قلتُ له: «لا شكّ في أنّك تعرف أنّ بإمكانك الموت بعد فترة قصيرة. لكنّك لا تستطيع أن تموت قبل أن يتوافر لوالدَيْك وقت لرؤيتك وتوديعك». إستدعيتُ الممرّضة التي لم تصدّق عينيها، واستدعت بدورها الطبيب الذي قال إنّه لا يوجد أمل فعليّ في بقاء آدم على قيد الحياة، وإنّ عليّ تركه يموت. أجبته أنّ على آدم البقاء حيًّا إلى حين وصول والدَيْه!...



www.faithandlight.wordpress.com

سألني الطبيب بدهشة: «ألستِ والدته؟...»، أجبته: «كلّا، لكنّ والدَيْه في طريقهما إلى المستشفى». غادر الطبيب الغرفة وهو يهزّ رأسه قائلًا إنّه سيعود لاحقًا. عندما وصل ريكس وجين كان آدم ما زال يتنفّس.

في تلك الأثناء، وصل خبر نزاع آدم إلى المقيمين في «ديبريك»، تجمّع المشاركون في البرنامج اليوميّ لآدم داخل قاعة الاجتماعات في «ديبريك» لتنظيم قدومهم بشكل مجموعات متتالية لوداع آدم. كان كلّ شخص من هؤلاء يعاني إعاقات بالغة، ولهذا كان على المساعدين تقرير مَن سيذهب أوّلًا في الحافلة المخصّصة للمقاعد المتحرّكة، ومَن سينتظر إلى الساعة الحادية عشرة صباحًا. كان الرأي أن يذهب تريسي ومايكل أوّلًا، فشرع المساعدون في إحضار معطفيهما والمقعدَيْن المتحرّكين من دون أن يلاحظوا أنّ روزي التي تَقرَّر أن تذهب لاحقًا، كانت قد تسلّلت إلى الخارج بخطوات بطيئة حذرة ووضعت معطفها على إحدى كتفَيْها، ودفعت بمقعدها المتحرّك إلى مدخل البهو.

روزي، شأنها شأن آدم، لا تستطيع الكلام. وقد تعلّمتْ المشي عندما بلغت الخامسة والعشرين من عمرها، بعد قضاء عدّة سنوات داخل مهد في مستشفى صغير خاصّ بالرعاية. لم يسبق لروزي أن تواصلت مع أيّ شخص عن قرب، وكان من شأنها الزعيق دونما أيّ سبب واضح. ويبدو أنّها كانت تعيش في عالم منفصل خاصّ بها.

عندما أصبح تريسي ومايكل جاهزَيْن للذهاب، كانت روزي تسدّ المدخل بمقعدها المتحرّك. رفعتها كاتي من المقعد برفق قائلة إنّ عليها الانتظار قليلًا، لكنّها ستذهب في الساعة الحادية عشرة. أعادتها كاتي إلى قاعة الاجتماعات وسحبت معها مقعدها المتحرّك، وفي حين هي خارجة رنّ جرس الهاتف فتوقّفت لتجيب. عندما عادت بعد دقيقتين،



مَن تراها كانت تسدّ المدخل بمقعدها المتحرّك؟... روزي!.

سألتها كاتي: «روزي، هل ثمّة ما تريدين قوله لنا؟...». لم تحرّك روزي ساكنًا، ولكن عندما ذهبت كاتي لمساعدتها على العودة إلى قاعة الاجتماعات، تشبّثت بمقعدها. قالت كاتي: «قد تكونين بحاجة إلى الذهاب الآن، لكنّك يا روزي لا تستطيعين إطلاق أصوات عالية إذا ذهبتِ إلى المستشفى الآن. آدم مريض جدًّا، ونحن ذاهبون لنقول له: «وداعًا». إذا بدأتِ بإطلاق أصوات عالية، فسوف يطلبون إلينا الرحيل ولن يسمحوا للآخرين بالمجيء، ما رأيكِ؟...». تمسّكت روزي بمقعدها كمَن يقول: «أرجوكِ، أريد الذهاب الآن».

لم تكن الممرّضات، ولا حتّى العائلة، مطمئنّين تمامًا إلى فكرة دخول موكب من الأشخاص إلى غرفة آدم لوداعه، لكنّهم سمحوا بذلك. أُدخلت روزي التي كانت قد تلقّت تنبيهات صارمة بشأن «ضجّتها»، الغرفةَ جالسة في مقعدها المتحرّك وسُحب المقعد إلى جوار سرير آدم. نظرت روزي بهدوء في عيني آدم مباشرة. بدا آدم وكأنّه يبادلها النظرات. مدّت يدها وأمسكت بيده، وهو أمر لم يسبق لأحد أن رآها تقوم به، ظلّت ممسكة بيده وهي تنظر في عينيه لمدّة دقيقتَيْن. ثمّ وضعت يدها برفق على السرير وأسندت ظهرها إلى مقعدها، جاهزةً للذهاب. لقد ودَّع آدم وروزي واحدهما الآخر. أصبحت روزي جاهزة لمغادرة المستشفى.

* * *

في ذلك الصباح تلقّيتُ اتّصالًا هاتفيًّا من ووترتاون (في ماساتشوسيتس)، من كاتي كريستي سكرتيرتي في «ديبريك». أخبرتني أنّ آدم تعرّض لنكسة خطيرة، وأنّ الأمل بشفائه هذه المرّة يكاد يكون معدومًا. بعد بضع ساعات، كنتُ على متن طائرة متّجهة إلى تورنتو.



www.faithandlight.wordpress.com

عندما دخلتُ غرفة آدم في المستشفى كان تأثّري بالغًا لمّا شاهدتُ صديقي العزيز مستلقيًا يعيش، على ما يبدو، ساعاته الأخيرة بيننا. قبّلتُ جبينه ومسّدتُ شعره. ومع أنّ عينيه كانتا مفتوحتَيْن. إلّا أنّني لم أكن واثقًا بأنّه عرفني. حيّاني كلّ من ريكس وجين وآن وأحسستُ بالحزن الكبير الذي يعتمل داخل نفوسهم، لقد عانوا الكثير إبّان الأشهر الفائتة، وإلى وقت ليس بالبعيد كانوا يأملون أن يتمكّن آدم ثانيةً من النجاة، لكنّهم في تلك اللحظة أدركوا أنّ الموت أصبح وشيكًا.

قالت لي جين وهي تغالب دموعها: «هنري، شكرًا لقدومك. لقد كنتَ مقرّبًا من آدم، أخشى أنّ أجله قد حان، وسنضطرّ إلى السماح له بالرحيل عنّا. لقد تعذّب طويلًا بما يكفي... طويلًا جدًّا».

بعيد وصولي حضر مايكل شقيق آدم بصحبة أحد المساعدين ليكون إلى جوار أخيه. توجّه مباشرة إلى سرير آدم، وهو يتمتم موجّهًا الحديث إلى الله: «أنا.. أطلب إليك.. مساعدة أخي. أرجوك ساعد أخي على معاودة المشي». نظر مايكل بحزن إلى والديه فأحاطه والده بذراعَيْه. بعد بضع دقائق، وعندما رآني، أحاطني بذراعَيْه ووضع رأسه على صدري، وشرع يبكي. أمسكتُ بجسده المرتجف لفترة ثمّ استدرتُ معه باتّجاه آدم الراقد في سريره. وعندما أمسك مايكل بقارورة الزيت المقدّس الصغيرة، تجمّع الكلّ، مسحتُ جبهة آدم ويدَيْه بالزيت سائلًا الله أن يهبه القوّة الداخليّة اللازمة لاجتياز عبوره الأخير.

قال مايكل من خلال دموعه: «شقيقي سيذهب إلى السماء، قلبي يتفطّر حزنًا.. يتفطّر حزنًا أيّها الأب». أخذته بين ذراعيَّ ثانيةً وبكينا معًا. كان مفجعًا رؤية حزن مايكل وقد انتقل إلى والدَيْه فرأى الدموع التي انهمرت بغزارة في حين كنّا نتحلّق حول آدم. بعد حوالى الساعة، ودّع مايكل شقيقه بمساعدة والده، وغادر المستشفى عائدًا إلى منزله.



كانت الساعة قد أصبحت السادسة بعد الظهر لكنّ ريكس وجين استمرّا في متابعة كلّ نَفَس يسحبه آدم تحت قناع الأوكسجين وهما يحاولان توفير الراحة له قدر المستطاع، ويدعوانه لسحب النَفَس التالي. وكانا من حين إلى آخر يرطّبان شفتَيْه بإسفنجة صغيرة. قلتُ لهما: «إنّه لا يستسلم بسهولة، إنّه محارب بحقّ». قالت آن بافيلونيس: «أنا واثقة بأنّه كان بانتظار قدومك أنت وريكس وجين. الآن، وبعد أن جئتم ورأيتموه، حان الوقت لنسمح له بالرحيل عنّا». لم نكن نصغي إليها بطبيعة الحال!.. كان والداه يحاولان تشجيعه قائلَيْن: «آدم، تنفّس، هيّا. أنتَ قادر على ذلك، تنفّس». أخيرًا، اختلَتْ آن بكلٍّ منهما على حِدَة في أحد جوانب الغرفة وساعدتهما على الاقتناع بأنّ الوقت قد حان للكفّ عن مطالبة آدم بالعيش. قالت لهما: «عليكما مباركته والسماح له بالرحيل». إقترب كلٌّ منهما، على مضض، من آدم وأخبره أنّ بإمكانه الرحيل. جلستُ على السرير أربّت على رأس آدم وعلى شعره وأُمسك وجهه بين يديّ من حين إلى آخر.

تابع المقيمون في «ديبريك» المجيء طوال المساء، وكانوا يتوافدون تباعًا من غرفة الانتظار، ليمكثوا برهة يودّعون في أثنائها آدم وليتحدّثوا إلى كلّ منّا قليلًا. ومن حين إلى آخر، كان بعضنا يتحلّق حول سرير آدم يمسك بعضنا بأيدي بعضنا الآخر لنصلّي من أجله، ومن أجل والديه وعائلته وأصدقائه العديدين. كنّا نطلب إلى الله أن يمنحنا جميعًا سكينة داخليّة عميقة وحرّيّة تدفعاننا لترك آدم يعود إلى منزله الأصليّ، عندما يحين أجله.

في وقت لاحق من تلك الأمسية، فصلت الممرّضة شاشة جهاز المراقبة عن التغذية الكهربائيّة، ونزع ريكس وجين قناع الأوكسجين لتحرير آدم من جميع منظومات الدعم غير الضروريّة. كان آنذاك ينازع



www.faithandlight.wordpress.com

سكرات الموت وكان الشيء الوحيد المتاح هو توفير الراحة له قدر المستطاع. ثمّ بدأ صراعه مع عمليّة التنفّس. ومع أنّ مظهره كان يوحي بأنّه لم يكن يعاني أيّ ألم، فإنّ الاضطرار لبذل مجهود شاقّ لسحب كلّ نَفَس كان من دون شكّ أمرًا عسيرًا. قالت جين بكبرياء: «أنا أتعجّب كيف يمكنه القيام بذلك بقلبه الضعيف. لا شكّ في أنّه لا يستسلم بسهولة. إنّه لجبّار». ركع ريكس إلى جوار السرير وأمسك بيد آدم، ووقفت جين عند الطرف المقابل ووضعت يديها على آدم الراقد على فراش الموت.

عندما حلَّ منتصف الليل بدا وكأنّ آدم سيعيش حتّى الصباح، وبدأ الإرهاق يستولي عليّ. قالت آن: «إذهب إلى المنزل لتنال قسطًا من النوم. سنبقى هنا أنا وريكس وجين وسنخبرك عندما يموت آدم».

* * *

حوالى الساعة الواحدة صباحًا، وكنتُ قد استغرقتُ للتوّ في النوم بغرفتي في ديسبرنغ، اتّصلت بي آن وقالت: «هنري، لقد توفّي آدم». إندفعت إلى ذهني مباشرة كلمات يسوع: «لقد تحقّقتْ». لقد وصلت حياة آدم - ورسالته - إلى النهاية.

بعد خمس عشرة دقيقة كنتُ قد عدتُ إلى المستشفى. كان آدم مسجًّى هناك، تغمره السكينة، ينعم بالسلام. إنتهى الصراع من أجل سحب النَفَس التالي، انتهت حركات الأصابع العصبيّة، وتململ الجسم القلق. كان ريكس وجين وآن يجلسون على السرير يلمسون جثمان آدم، وكانت ثمَّة دموع، دموع الفقدان، ولكن دموع الراحة أيضًا. أمسكنا نحن الأربعة بعضنا بأيدي بعضنا الآخر، وبينما نحن نتأمّل وجه آدم الهادئ صلّينا عرفانًا بجميل نعمة حياته التي دامت أربعة



وثلاثين عامًا، ونعمة كلّ ما وهبنا إيّاه آدم من خلال ضعفه الجسديّ، وقوّته الروحيّة الخارقة.

لم أستطع منع نفسي من تأمّل وجهه. أخذت أفكّر، «ها هو الرجل الذي ساعدني أكثر من أيّ شخص آخر على التواصل مع ذاتي ومع مَن يحيطون بي ومع إلهي. ها هو الرجل الذي عُهِدَ به إليّ لأرعاه، لكنّه استوعبني داخل حياته وقلبه بعمق لا يمكن تصديقه. صحيح أنّني أحطته برعايتي أثناء السنة الأولى من إقامتي في «ديبريك» وأحببته مع الوقت حبًّا جمًّا، لكنّه أصبح في حياتي بمثابة نعمة لا تُقدَّر بثمن. ها هو الناصح والمعلّم والمرشد الذي لم يكن يستطيع النطق بكلمة واحدة، لكنّه علّمني أكثر من أيّ كتاب أو أيّ أستاذ أو أيّ موجِّه روحيّ. ها هو آدم، صديقي، صديقي الحبيب، أكثر الأشخاص الذين عرفتهم ضعفًا، وأقواهم في الوقت نفسه. الآن هو ميت، انتهت حياته، أُنجِزَت مهمّته. عاد إلى قلب الله الذي جاء منه».

شعرتُ بأسًى عميق وبسرور بالغ في آن واحد. لقد خسرتُ صديقًا وربحتُ وصيًّا لما تبقّى من العمر. بدأتُ أصلّي: «فلتُرشد جميع الملائكة خطى آدم في دربه نحو الفردوس، ولترحِّب بوصوله إلى منزله، إلى عناق إلهه الحنون».

الموتُ لغز محيّر، وهو يدفعنا إلى التساؤل: «لماذا أعيش؟... كيف أعيش؟... لمَن أعيش؟...». ونتساءَل أيضًا: «هل أنا مستعدّ للموت... الآن.. في ما بعد؟...». بدا وكأنّ آدم أطلق لي حرّيّة طرح تلك الأسئلة في قرارة نفسي. وكأنّه قال لي: «هنري، لا تخف. دع موتي يدفعك إلى التعايش بسلام مع موتك. عندما يتلاشى خوفك من فكرة الموت، يصبح بإمكانك أن تعيش حياة كاملة وحرّة وبهيجة».

يا له من امتياز، أن أكون هناك مع ريكس وجين وآن، لكي أختبر



www.faithandlight.wordpress.com

معهم لحظة العبور المقدّسة تلك. راودني شعور بأنّني يوحنّا، التلميذ المخلص ليسوع، الذي يقف إلى جوار مريم تحت الصليب. لم يكن لديّ أبناء من صلبي، لكنّ آدم كان لي بمثابة الابن. كما أصبح بمثابة الوالد أيضًا. هناك، وأمام جسده الهامد، عرفتُ أنّ الله لم يتركني وحيدًا، من دون أولاد ومن دون مأوى.

عندما كان يسوع يعاني سكرات الموت، قال لمريم وهو ينظر إلى تلميذه الحبيب: «أمّاه، هذا ابنك»، وقال ليوحنّا: «هذه أمّك». وبذلك جعل من موته بداية لصلة وثيقة جديدة. وآدم أيضًا صاغ في تلك اللحظة، وفي الأيّام التي تلت، روابط صلة وثيقة بين عائلته وأفراد مجتمعه في الماضي والحاضر وأصدقائه.

جاء الطبيب حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر. وأدرك ريكس وجين أنّ الوقت قد حان لوداعهما الأوّل. قال له ريكس: «أرجوك كن رفيقًا بجسده». وكان ذلك ما قام به ريكس إبّان السنوات الأربع والثلاثين الماضية.

عندما غادرنا المستشفى، أصرّ ريكس وجين على إيصالي إلى منزلي. كان البرد قارسًا، وكان كلّ شيء ساكنًا يغطّيه الثلج الذي انهمر في أثناء العاصفة الثلجيّة السابعة في ذلك الشتاء القاسي. بعد ربع ساعة ترجَّلتُ من السيّارة في «ديبريك». وفي حين أنا ألوّح لهما مودّعًا، حاولتُ أن أتخيّل ما يعتمل في قلبيهما. رجل وامرأة داخل سيّارتهما في ذلك الليل البهيم، يتفطّر قلباهما حزنًا على ولدهما الحبيب الذي وهباه كلّ ما استطاعا من حبّ ورعاية. كان تخيّل مدى الكرب الذي يشعران به أمرًا يفوق استطاعتي، لكنّني في الوقت نفسه، كنتُ على قناعة بأنّ آدم كان قريبًا منهما، يحميهما ويحرسهما. لن يتخلّى عنهما آدم في حزنهما.



## الفصل السابع

# السهر قرب جثمان آدم ودفنه

عندما استيقظتُ صباح اليوم التالي شعرتُ بأنّي بحاجة إلى قضاء بعض الوقت مع مايكل، شقيق آدم. إقترحت عليّ ماري باستادو، المسؤولة عن المنزل الذي يقيم فيه مايكل، أن أدعوه إلى تناول المرطّبات خارج المنزل. قالت لي: «الواقع أنّه يرغب في أن يكون معك حاليًّا». وهكذا ذهبتُ مع مايكل إلى مطعم قريب في ريتشموند هيل حيث طلبنا مشروبًا غازيًّا وقهوة. جلسنا وتحدّث كلّ منّا عن نفسه، وتحدّثنا عن آدم. قلتُ له: «مايكل، أشعر بسرور بالغ نتيجة الصداقة التي تربطنا». تمسَّك مايكل بمسند مقعده، ثمّ اقترب منّي وابتسم، وقال بطريقته الخاصّة: «نعم.. أيّها الأب.. أنا صديقك».

قلتُ له: «لقد رحل شقيقك آدم وهو الآن إلى جوار الله. سوف نذهب اليوم إلى دار الدفن لرؤية جثمانه وغدًا سندفنه في المقبرة». نظر إليّ مايكل والدموع تترقرق في عينيه، وقال: «أنا لا أحبّ ذلك أيّها الأب، لا أحبّ ذلك... تحت الأرض»، وأشار إلى الأرضيّة. قلتُ له: «مايكل، وأنا أيضًا لا أحبّ ذلك، لكنّني آمل أن يهب اللهُ آدمَ جسدًا جديدًا ليتمكّن من التجوّل في السماء، ومن الكلام، ومن الحديث إلى جدّه وجدّته وعمّته الموجودين هناك».

كان حزن مايكل عميقًا. لكن لحسن الحظّ كان من الممكن إلهاؤه



www.faithandlight.wordpress.com

من حين إلى آخر لفترة وجيزة. أحد أساليب الإلهاء التي استطعتُ تسليته بواسطتها هي إجلاسه في سيّارتي وتركه يعبث بالراديو ويستمتع بوجوده في السيّارة في نزهة قصيرة. شعرت بأنّ مايكل سيكون على ما يرام. كان رجلًا ورعًا وأحسستُ بأنّ إيمانه سيساعده إبّان الأيّام التالية.

ذهبتُ بعد ظهر تلك اليوم إلى دار الدفن ورأيتُ آدم مسجًّى في تابوته، فشعرتُ بدهشة بالغة. فقد بدا حديث السنّ، كشابّ في الثامنة عشرة استغرق لتوّه في النوم. بدا وجهه وديعًا، وبشرته ناعمة، وشعره مسرَّحًا بأناقة. كان يرتدي قميصًا بديعًا وسترة صوفيّة بلون أصفر. جماله وشبابه جعلا عينيّ تغرورقان بالدموع. كانت المرّة الأولى التي أراه فيها ساكنًا مغلق الفم. شعرت بأنّ من الصعب عليّ أن أصدّق أنّ هذا الرجل قد وهبني الكثير من دون أن يتفوّه بأيّة كلمة على الإطلاق، ولم يكن يستطيع الركض في الحديقة، أو اللعب بالكرة، أو التردّد إلى المدرسة كطالب نظاميّ، أو قراءة الكتب. كان يحبّ فقط تزجية الوقت بصحبة أصدقائه. بدا موفور الصحّة، سليمًا، وسيمًا لدرجة لم أتمكّن معها من تحويل نظراتي عنه، وكأنّه يريني لمحاتٍ من الجسد الجديد الذي سيكون له عند القيامة.

كانت جين متردّدة بشأن ما إذا كان من المناسب وضعه في تابوت مكشوف. قالت بعد طول تفكير: «آدم الآن ميت. ما جدوى أن يكون آخر انطباع عنه لدى الناس جسدًا هامدًا». طلبتُ إليها التفكير في ترك التابوت مفتوحًا لفترة وجيزة، ليتسنّى لمَن يريد فعلًا رؤيته قبل الدفن إلقاء نظرة عليه. ولكن، عندما شاهدت جين ابنها وديعًا، وسيمًا، مستكينًا أدركت مدى الراحة التي سنشعر بها لرؤيته، وتمسيد شعره، وتقبيل جبهته.



في أثناء فترة بعد الظهر وساعات الزيارة في المساء، جاء معظم المقيمين في «ديبريك» لزيارة آدم مرّة أخرى. كانت القاعة الكبرى في دار الدفن تعجّ بالناس. إعتصر الألمُ قلبَ آن وجون وديفيد وليشيك وجودي وكلوديا، وهم المساعدون الذين عاشوا مع آدم في نيو هاوس لأشهر أو لسنوات، عندما أدركوا أنّ آدم قد رحل فعلًا. وكم كان من الصعب عليهم تخيُّل كيف ستستمرّ الحياة في المنزل من دون آدم.

جاء أيضًا أصدقاء آدم وشركاؤه في المنزل. جاء جون بالرغم من خوفه من المستشفيات ودور الدفن والكنائس والمقابر، لأنّها تذكّره بوفاة والدته. كان جون قد شارك آدم في حياته منذ قدوم آدم إلى «ديبريك»، وكان يبدي نحوه الكثير من العاطفة والحبّ. ولم يكفّ عن ترديد العبارات التي يعرفها أكثر من غيرها، مثل: «هنري، هل ستكون الليلة في المنزل؟». كان يرغب في التواصل وفي الحضور وفي التقرّب من الآخرين، لكن تجربته الخاصّة وجراحه لم تسمح له بالتعبير عن الكرب الذي يعانيه.

كما جاءت روزي أيضًا. قدمت روزي إلى «ديبريك» في العام نفسه الذي جاء فيه آدم. وبالرغم من إعاقتها البالغة، وبالرغم من أنّها تبدو للآخرين وكأنّها تعيش في عالم خاصّ لا يمكن ولوجه، فإنّ الأشخاص الذين عاشوا وعملوا معها لاحظوا عمق تأثّرها بمرض آدم ووفاته. بعد أن ودَّعته، اكتفت روزي بالتجوّل في الغرفة بخطوات متعثّرة وفي الاقتراب من آدم مع أحد المساعدين للنظر إليه، ثمّ بالجلوس على الأرض بعيدًا عن الحشد. تعبِّر روزي غالبًا عن فرحها أو عن ألمها بإطلاق صوت عال يصمّ الآذان، لكنّها الآن تركّز نظرها على صديقها، وتشعر بحزن عميق لفراقه.

وجاء مايكل أيضًا، وهو غير مايكل شقيق آدم، على مقعده



www.faithandlight.wordpress.com

المتحرّك. وبالنظر إلى الشلل الدماغيّ الخطير الذي يعاني منه وقصوره العقليّ، كان من الصعوبة بمكان لمايكل إطلاع أيٍّ كان على ما يدور في قرارة نفسه. وحتّى عندما كان مايكل بجوار آدم ينظر إلى جسده الهامد، بدا عاجزًا عن التعبير عمّا يدور بخلده، لكنّ وجوده أمام جسد آدم حرَّك مشاعر عميقة لدى كلّ مَن كان يقف حولهما. ولم يرتفع صوته ملتاعًا بصرخة تصمّ الآذان إلّا في اليوم التالي في أثناء مراسم الجنازة.

أمّا روي، شريك آدم في المنزل، فلا يستطيع مواجهة الموت مباشرة. وقد اتَّخذ قرارًا بأنّ مجيئه إلى دار الدفن سوف يزعجه بشدّة. لكنّه لم يكفّ وهو في المنزل عن التساؤل: «كيف حال آدم؟.. كيف حال آدم؟..»، وكان يبذل جهدًا ليظلّ مبتهجًا ومتفائلًا في غمرة حزنه. وفي الوقت ذاته، كان يعاني في قرارة نفسه ولم يستطيع السيطرة على نوبات الإحباط والغضب. كان روي يحبّ آدم بعمق ويتحدّث عنه دائمًا بحنان، كانت هناك صلة حقيقيّة تجمع الرجلَيْن. بعد الجنازة، زار روي وآن قبر آدم معًا. بعد تلك الزيارة، بدا روي أفضل حالًا.

عجَّت الغرفة التي سُجي فيها جثمان آدم بالناس، ولم يقتصر الحضور على المقيمين في التجمّع وعلى أفراد العائلة، بل كان هناك أيضًا أصدقاء قدامى جاؤوا من أماكن بعيدة. غريغ وزوجته إيلين اللذان كانا قد التقيا آدم في نيو هاوس وعاشا معه، عادا بالسيّارة من شيكاغو. وستيف الذي كان مقرَّبًا من آدم عندما عمل مساعدًا في المنزل وفي البرنامج اليوميّ لآدم، حضر من سياتل. وبيتر الذي رافق آدم لمدّة عامَيْن عمل في أثنائهما مدير نيو هاوس، حضر بالطائرة من نوڤا سكوتيا ليسهر قرب الجثمان ويشارك في الجنازة.

في أثناء ساعات الزيارة، كنّا كثيرًا ما نتوقّف عن الكلام ونشكّل دائرة كبيرة حول التابوت لنصلّي ونتشارك الحزن. وكنتُ أقرأ المزمور



السابع والعشرين، شاعرًا وكأنّي أعبِّر عن مكنونات آدم. وبعد انتهاء الصلاة، كنّا نظلّ واقفين بشكل دائرة ليشرع بعض الحاضرين في رواية قصص عن آدم، أو عن أحلام أو أحداث، وكانت تلك القصص تستثير ابتسامة أو دمعة، أو كليهما. لم يكفّ الحزن والفرح عن الرقص معًا حول جثمان آدم. الأسى والضحك، شعور بخسارة لا تعوَّض، وشعور بالفوز العظيم. وخيِّل لنا وكأنّنا نسمع آدم يردّد ما قاله يسوع لتلاميذه الحزانى: «أما كان ينبغي على المسيح أن يتألّم بهذا ويدخل في مجده؟...» **(لوقا ٢٤: ٢٦)**.

قال يسوع كلامًا آخرَ ليبعث في نفوسنا الأمل في تلك اللحظة:

«إن لم تقع حبّة الحنطة في الأرض وتمُتْ فهي تبقى وحدها. ولكن إن ماتت تأتي بثمار كثيرة. مَن يحبّ نفسه يهلكها ومَن يبغض نفسه في هذا العالم يحفظها إلى حياة أبديّة». **(يوحنّا ١٢: ٢٤-٢٥)**.

وبينما نحن متحلّقون جميعًا حول جثمان آدم، شعرت بأنّ كلمات يسوع التي يصف بها نفسه كانت تومض لتنير لنا لمحات من لغز الخصب الوافر لحياة آدم، بل ولموته أيضًا.

* * *

في يوم الخميس، الخامس عشر من شهر شباط/فبراير ١٩٩٦، تجمَّع بضع مئات من الأشخاص في كنيسة القدّيسة مريم بلا دنس في ريتشموند هيل، للاحتفاء بحياة آدم وموته. عندما أُدخل جثمان آدم الكنيسة ووقف الجميع تحيّة له، داهمني الإدراك أنّ جميع هؤلاء الرجال والنساء كانوا قد تأثّروا بعمق بذلك الشابّ الجميل البالغ الضعف. فهو لم يكن فنّانًا لامعًا أو موسيقيًّا مشهورًا أو شخصيّة دينيّة



www.faithandlight.wordpress.com

عظيمة أو قائدًا سياسيًّا ناجحًا. كلّا، لم يكن آدم مَن خاطبنا بكلماته، بل بأنموذجه. آدم الذي لم يكن بحاجة إلى التنقّل أو لإلقاء الخطابات أو لتأليف الكتب لكي يوصل رسالة السلام التي يحملها. لم يكن آدم بحاجة إلى كسب قرش لأنّه استدعى مجتمعًا من الرعاية ليتشكّل حوله، آدم الذي نهضنا جميعًا من أجله تملأ أعيننا الدموع وقلوبنا مترعة بحبّه.

وفي حين كان ثمانية من أصدقاء آدم المقرّبين يحملون التابوت إلى صدر الكنيسة، أخذنا نرتّل:

طوبى للمساكين بالروح،
لأنّ لهم ملكوت الله.
طوبى للحزانى،
لأنّهم يتعزّون.

وأصغينا إلى كلمات بولس: «إختار الله ضعفاء العالم ليخزي الأقوياء» (رسالة بولس الرسول إلى أهالي **قورنتس ١ : ٢٧**).

كما أصغينا إلى الكلمات التي تعبّر عن رؤيا يسوع: «طوبى للودعاء لأنّهم يرثون الأرض» (**متّى ٥ : ٤**). وأدركنا أنّ تلك الكلمات كانت فعلًا تتحدّث عن آدم.

وفيما أنا واقف أمام جثمان آدم أُمسك بخبز القربان المقدّس وأردّد كلمات يسوع: «خذوا كلوا هذا هو جسدي»، غمرني إدراك جديد كلّيًّا أنّ الله قد تحوّل إلى جسد من أجلنا لكي نلمس الله ونشفى. جسد الله وجسد آدم هما واحد، لأنّ يسوع يقول بوضوح لا لبس فيه: «فما فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصغار فبي فعلتم» (**متّى ٢٥ : ٤٠**). والحقيقة أنّنا في آدم لمسنا المسيح الحيّ بين ظهرانينا.

جاء الجميع إلى صدر الكنيسة لتناول جسد المسيح ثمّ عادوا،



بعد القربان المقدّس، ليلمسوا تابوت آدم في الوداع الأخير. وفي حين أيدينا تربّت على التابوت الخشبيّ، أخذنا ننشد الترتيلة الإيرلنديّة القديمة:

فليرتفع الدرب معك.
فلتكن الريح دائمًا خلف ظهرك.
فلتتألّق الشمس دافئة على وجهك.
فليسقط المطر نديًّا على حقولك.
إلى أن نلتقي ثانية.
فليحمِلْك الله في عمق يد الله.

بعد ذلك، خرج الأشخاص الذين حملوا جسد آدم إلى المذبح، خرجوا به من الكنيسة عندما كنّا نرتّل:

سوف يرفعك الله على أجنحة النسر،
ويحملك على أنفاس الفجر،
ويجعلك تتألّق كالشمس،
ويمسك بك في راحة يده.

* * *

إستقلّيت مع مايكل سيّارة مقدِّمة موكب الجنازة السائر إلى المقبرة. بعد الصلاة كانت جين قد قالت لي: «مايكل في حالة يرثى لها من الحزن. لا أدري إن كان من المناسب له أن يذهب إلى المقبرة». لكنّني شعرتُ بأنّ مايكل كان يرغب في أن يكون قريبًا من عائلته وأصدقائه، وأنّه ما من بأس عليه أن يعيش حزنه حتّى النهاية. قلتُ له: «لماذا لا تستقلّ معي سيّارة المقدِّمة؟...». أجاب مايكل فورًا: «نعم.. أيّها الأب.. سأذهب معك.. في سيّارتك».



www.faithandlight.wordpress.com

في المقبرة، أخذ حاملو النعش جثمان آدم إلى موقع الدفن حيث وُضِع على منصّة معدنيّة يدلّى بها في القبر. كان القبر مغطّى بألواح خشبيّة كبيرة، كما كانت كومة التراب بجوار القبر مخفيّة خلف ألواح من العشب الاصطناعيّ. رافق جثمان آدم إلى مرقده الأخير مئة شخص على الأقلّ.

كان يومًا جميلًا بالرغم من برودته، فقد أضاءت الشمس جميع أرجاء المقبرة المكسوّة ببياض الثلج. وكان الهواء ساكنًا بحيث يمكن سماع كلّ كلمة ينطق بها أحدهم.

لفتت انتباه مايكل مرشّة الماء المقدّس التي كنتُ أحملها، وشعرتُ بأنّه كان الشخص المؤهّل لمباركة قبر آدم وتابوته بالماء المقدّس. بعد صلاة قصيرة، أعطيتُ مايكل المرشّة، وفي حين أنا أسنده بإحكام، انحنى فوق التابوت وباركه بعناية، وهو يسير ببطء من جانب إلى آخر. بعد ذلك تلوتُ الصلاة التالية:

إلهي العزيز، نستودعك ابننا وأخانا وصديقنا آدم.
ونحن واثقون بأنّه سوف يعود إلى الحياة
في يوم الدينونة، وسوف يعيش معك إلى الأبد،
بصحبة جميع مَن عاشوا وماتوا في المسيح.
رحِّب بآدم العزيز على قلوبنا في الفردوس،
وساعدنا على مواساة بعضنا بعضًا بالثقة في عقيدتنا،
إلى أن نلتقي في المسيح، لنكون معك ومع آدم إلى الأبد.

بعد تلاوة الصلوات ظهر شابّان يلبسان رداء عمل ويعتمران قبّعتَيْن. وباشرا إزالة العشب الاصطناعيّ وألواح الخشب الكبيرة الموجودة أسفل التابوت. إرتسمت ابتسامة على وجهي. فقد ذكّراني بحفّارَيْ القبور في مسرحية شكسبير «هاملت»، وقد ظهرا بشكل فاصل



فكاهيّ قصير. وبينما كنّا جميعًا ننتظر، جعلتْنا طاقتهما الشابّة وانهماكهما في العمل ندرك بوضوح أنّنا سندفن آدم ولن نتركه وحيدًا فوق سطح الأرض في الثلج البارد. عندما أُزيلت جميع الألواح، دلّى الرجلان التابوت داخل القبر. بدت الرحلة إلى باطن الأرض طويلة وبطيئة. وفي حين كان التابوت ينزل داخل القبر كنّا نرتّل: «هللويا، هللويا، هاللويا». تابع الرجلان النظر عميقًا داخل الحفرة إلى أن لمس التابوت القعر، وأصبح بمقدورهما سحب الحبال والرافعة المعدنيّة. ثمّ قدّما إليّ وإلى ريكس رفشَيْن كبيرَيْن حفرنا بهما التراب، ودفعناه ليسقط فوق التابوت محدثًا أصواتًا مكتومة. تناوبت الأيدي الرفشَيْن إلى أن نال كلّ مَن يرغب حصّة من العمل.

بدا ذلك نهائيًا وحاسمًا جدًّا. نظرت إلى تابوت آدم عميقًا داخل القبر تعلوه باقة بسيطة من الزهور، وأدركت يقينًا أنّ آدم لن يكون بيننا ثانية. أحمال من التراب سوف تغطّي جسده، وسوف يتحوّل تدريجيًّا إلى جزء من التراب المحيط به. وكانت اللحظة التي وقفتُ فيها أمام تلك الحفرة الكبيرة هي اللحظة التي واجهتُ فيها نهائيّة الموت الحاسمة، وفي الوقت نفسه، الأمل بالبعث.

كان ذلك شعورنا جميعًا. رمينا كتل التراب المغلّفة بالصقيع داخل القبر، وسمعنا الصوت المكتوم لسقوطها فوق التابوت، وكان الحزن يمزّق قلوبنا. بدأ مايكل بالنحيب بين أذرع أصدقائه، وأطلق جون الذي تمكّن أخيرًا من إطلاق العنان لأحزانه، صرخات عويل عالية. في تلك اللحظة أدركنا عمق عجزنا ووحشتنا. فالشمس والثلج والبرد القارس والبكاء وجثمان آدم داخل القبر، كانت كلّها تعبِّر عن حزننا الذي لا يوصف. وعندما تناوبنا جميعًا على الرفشَيْن، عدنا لإنشاد الترتيلة الإيرلنديّة التي أنشدناها في الكنيسة، ثمّ قلتُ: «فلنغادر



www.faithandlight.wordpress.com

بسلام». إستدار الحشد ببطء وبدأ الناس يغادرون المكان.

تمهّلتُ قليلًا مع بعضهم قبل أن أغادر. فقد صَعُب عليّ ترك ذلك الرجل العظيم وحده هناك. ألقيتُ نظرةً أخيرة على المكان المغطّى بالثلج حيث كان يرقد جثمان آدم، وشعرت بعزلته الجديدة. مات آدم. لن يعود. لن نلمسه ثانية. علينا الآن متابعة العيش من دون أن يكون بيننا بجسده. كيف؟ لا أدري. علينا الانتظار، علينا مكابدة الألم، علينا الشعور بالفجيعة على الإنسان الذي خسرناه، علينا إطلاق العنان لدموعنا لتنهمر. لقد غادرَنا آدم. وها هو الآن يرقد بسلام، وعلينا نحن الاستمرار في العيش مع الأمل. ثمَّة أمرٌ واحد أعرفه من دون لبس. علينا أن نبقى معًا، علينا أن نثق بأنّ الإنسان الذي جمعَنا يرغب في بقائنا معًا. وفي حين كنّا نعود بالسيّارات إلى المكان الذي سنتناول فيه الغداء، كنت مدركًا أنّ آدم سيكون سعيدًا لرؤيتنا هناك، تملأ أعيننا الدموع، وتعلو شفاهنا البسمات من حين إلى آخر.



## الفصل الثامن

# بعث آدم

بدأ بعث آدم في حزن مَن أحبّوه. كان حزنًا صادقًا بالغ العمق. بعد الدفن، وعندما التقينا في قاعة الاجتماعات الكبرى في «ديبريك»، أدركتُ مدى الخسارة التي منينا بها. فقد كان آدم، ليس في حياتي وحسب، بل في حياة أشخاص عديدين، روح ذلك المجتمع الصغير، والمركز الهادئ الذي تمحورت عليه حياتنا القلقة. الآن، لقد ذهب المركز من دون رجعة.

والآن ماذا؟ ماذا بعد؟ كيف سنواصل المشوار؟ هل نستطيع أن نواصل؟ ففي أثناء الأيّام التي انقضت في السهر قرب جثمان آدم ودفنه، كان الإحساس بحضوره ما زال موجودًا. كنّا لا نزال قادرين على النظر إلى وجهه الفتيّ وعلى لمسه. الآن، لم يبق سوى الخواء والغياب. وجدتُ نفسي لا أكفّ عن التساؤل عن مشاعر أصدقاء يسوع بعد دفنه. خبل؟ إرتباك؟ غضب؟ مرارة؟ لقد تهاوى أساس وجودهم، انتُزع منهم معنى حياتهم. إنتهى كلّ شيء إلى جمود تامّ. لم تعد هناك أيّة تعاليم أو مواعظ، ولا وجبات مشتركة ولا لحظات مشتركة تنقضي في الصلاة أو الهدوء، ولا أحاديث حميمة. أين ذهبت الحشود، المعجزات، الأمل الكبير بنظام جديد، بحرّيّة حقيقيّة؟ أين ذهبت وفرة السمك والخبز وفرح العيش الصافي؟ ثمّ دُحرج حجر كبير على باب



www.faithandlight.wordpress.com

القبر (متّى ٢٧: ٦٠) وختموا الحجر (متّى ٢٧: ٦٦). كانت نهاية الأمر المطلقة مروِّعة. ماذا بوسع المرء أن يفعل سوى الذهاب إلى بيته، والجلوس يتملّكه الذهول والارتباك؟

نحن لا نستطيع الحديث عن العبث، أو حتّى التفكير فيه، من دون ولوج أعماق أحزاننا. ولم يكن بوسع أصدقاء يسوع، أو أصدقاء آدم، القول: «لا تبكوا، سوف يعود». نحن بحاجة إلى البكاء، إلى الإحساس بالخسارة، إلى الشعور بفجيعة الرحيل. الحزن هو الخواء، هو العتمة، هو اللامعنى، هو اللاجدوى، هو الشلل. بل إنّه موتُ الشخص المحبوب تدريجيًّا في داخلنا، بعد أن عثر على مقرٍّ له في قلوبنا. الحزن هو الرحيل ساعة بساعة، ويومًا بيوم، ودقيقة بدقيقة. نظلّ لمدّة طويلة نفكّر أو نتصرّف كما لو أنّه لا يزال معنا، لكنّنا ندرك عند كلّ لفتة أنّه ذهب، ذهب إلى الأبد. مَن سيوقظ آدم هذا الصباح؟ ولكن آدم لم يعد موجودًا. مَن سيعدُّ له طعام الإفطار، ويساعده في شرب عصير البرتقال، ويهيّئه لقضاء يومه؟ ولكن... آدم لم يعد موجودًا. الليلة سوف يأتي ريكس وجين. ولكن ليجلسا معنا، لا مع آدم. إنّه موت مستمرّ، كينونة لا تتوقّف عن الدهشة إزاء غيابه، وداع مؤلم بطيء، وحشة تورث الألم والعذاب. نحن لا نستطيع مراوغة حزننا. لا نستطيع تقصير أمده. علينا أن نمنحه وقتًا، الكثير من الوقت.

* * *

متى يبدأ البعث إذًا؟ أين سنرى آدم ثانية؟ متى سنجرؤ على الحديث عن غيابه، بل عن حضوره أيضًا؟ ففي رأينا، بدأ البعث بالرؤى والأحلام.

روت إيڤون، صديقة آدم المقرّبة، قصّة تخيّلتْها وهي في خضمّ



أحزانها. كانت تفكّر في آدم وفي موته وفي صداقتهما. وشعرت بأنّ المرّة التالية التي سترى فيها آدم ستكون في السماء. ثمّ تخيّلت أنّها تسير في السماء، وفي حين هي تسير رأت شابًّا وسيمًا يقترب منها. شعرت بالارتباك لأنّها لم تعرفه، لكنّه اقترب منها وقال: «إيڤون مرحبًا، أنتِ لا تعرفينني، أليس كذلك؟...». تابعت إيڤون النظر إليه وهي تشعر بأنّها تعرفه من دون أن تدري كيف. ثمّ ضحك وقال: «أنا آدم صديقك. أتذكرينني؟...». شعرت إيڤون بالعزاء، إذ إنّه يفيض طاقةً وبِشْرًا.

أمّا إليزابيت، وهي عضو قديم في «السفينة»، فقد رأت حلمًا. قالت إليزابيت: «رأيتُ آدم في منامي وهو يركض ويرقص ويقفز حرًّا كالطير. رأيتُه روحًا حرّة، يضحك ويتحدّث ويحرّك رأسه وذراعَيْه وساقَيْه كشابّ رياضيّ جميل. كان شديد الابتهاج، مشرقًا يقوم بكلّ ما كان يعجز عن القيام به في أثناء وجوده بيننا. عندما استيقظتُ، شعرتُ بالبهجة لأنّني رأيتُ آدم يرقص».

أمّا أنا فلم أر أيّ حلم أو أيّة رؤيا. بل على العكس، كنتُ أشعر في قرارة نفسي بذلك الإحساس الغريب بأنّه لم يعد هناك ما هو جدير بالعناء. لم يلازمني ذلك الإحساس طوال الوقت، فقد تابعتُ أعمالي الروتينيّة، لكنّني كنتُ أقول في نفسي من حين إلى آخر: «لماذا أقوم بكلّ ذلك، لماذا أزور شخصًا آخر، لماذا أتناول وجبة أخرى، أو أكتب كتابًا آخر، أو أحتفل بطقس دينيّ آخر؟ فمهما فعلتُ، كلّ شيء يؤدّي إلى لا شيء. لماذا نحبّ إذا كانت نهاية الجميع هي الموت؟». كنتُ أشعر بتعبٍ يستنزف قواي عندما أستلقي على سريري وأساءل نفسي: «لماذا أستيقظ ثانيةً؟».

لكنّني في كلّ مرّة كنتُ أحدّث فيها أصدقائي عن آدم، كانوا



www.faithandlight.wordpress.com

يصغون. وكانوا يصغون بطريقة تختلف عن إصغائهم إلى كلماتي الأخرى. فقد كانوا يصغون إلى قلبي الحزين، ويسمعون فيه صوت ذلك الشابّ الصامت الذي أحببتُه حبًّا جمًّا. وبينما أنا أتكلّم، كانوا يقولون: «لقد أحببتَه كثيرًا، أليس كذلك؟ أخبرنا المزيد عنه». وكنتُ أخبرهم المزيد: عن ولادة آدم، وعن والدَيْه الرائعين، عن مجيئه إلى «ديبريك»، عن علاقتنا وكيف لامس قلبي. يا لها من قصّة بسيطة. لكنّني في كلّ مرّة أرويها، كنتُ أتمكّن من رؤية حياة جديدة وأمل جديد ينبثقان من قلوب أصدقائي الذين يصغون إليَّ. صار حزني فرحهم، وصارت خسارتي ربحهم، وصار إحساسي بالموت بعثهم لحياة جديدة. وشيئًا فشيئًا، بدأتُ أرى آدم يعود إلى الحياة في قلوب أشخاص لم يعرفوه قطّ، كما لو أنّهم أصبحوا جزءًا من لغز عظيم. قال لي أحدهم ذات مرّة: «يبدو أنّ عليك الكتابة عن آدم، لكي يتمكّن أشخاص عديدون من معرفة قصّته ويقدّروها».

* * *

هل كانت تلك هي بداية بعثه، وسط أحزاني؟. لقد حدث ذلك مع مريم المجدليّة النائحة عندما سمعت صوتًا مألوفًا يناديها باسمها. وحدث أيضًا مع التلاميذ المكتئبين في الطريق إلى عمّاوس، عندما تحدّث إليهم شخص غريب واتّقدت النار في قلوبهم. وحدث مع التلاميذ المذعورين في العلّيّة عندما سمعوا كلمات: «ليكن السلام معكم»، وكلمات حانية أخرى تنضح بالغفران. وحدث مع أصدقاء يسوع الحزانى عندما عادوا إلى الصيد في البحيرة وامتلأت قواربهم بعد أن أخبرهم رجل كان على الشاطئ أن يرموا شباكهم إلى ميمنة القارب، ودعاهم في ما بعد إلى الإفطار معه.

لقد تحوّل النواحُ إلى رقص، وتحوّل الحزنُ إلى فرح، وتحوّل



القنوط إلى أمل، وتحوّل الخوف إلى محبّة. ثمّ نسمع أحدهم يقول بتردّد: «لقد قام، حقًّا قام».

إنّ قلبي يرفض تصديق أنّ كلّ ما عاشه آدم داخل جسده كان عبثًا. إنّ ضعفه وحياته اللذَيْن لا يمكن تصديقهما، واللذَيْن أصبحا البوّابة الغامضة التي تدفّقت منها محبّته العديد من الأشخاص، مكتوبٌ لهما المجد. ومثلما كانت جراح المسيح في جسده الذي قام هي العلامات التي سمحت للآخرين بالتعرّف إليه، أصبحت جراح آدم علامات على حضوره الفريد بيننا. كان جسد آدم الواهن بذرة حياة جديدة متعالية. يقول بولس: «ويسأل أحدكم: «كيف يقوم الأموات، وفي أيّ جسم يعودون؟»». يا لك من جاهل! ما تزرعه لا يحيا إلّا إذا مات. وما تزرعه هو مجرّد حبّة من الحنطة مثلًا، أو غيرها من الحبوب، لا جسم النبتة كما سيكون. والله يجعل لها جسمًا كما يشاء، لكلّ حبّة جسم خاصّ». **(رسالة بولس الأولى إلى قورنتس ١٥ : ٣٥-٣٨)**.

كان جسد آدم الفريد هو بذرة حياته التي بُعثت ثانيةً. عندما شاهدتُ جماله الفتيّ في التابوت تراءت لي لمحات من هذه الحياة الجديدة. وعليّ أن أثق برؤى وأحلام أصدقائي، وبالأمل الجديد الذي ينبثق في قلوب أولئك الذين أحدِّثهم عن حياة آدم. عليّ أن أثق بما يحدث من خلال حزني وحزن الآخرين. وعندما أثق، عليّ أن أومن بأنّ بعث آدم، ابن الله الحبيب، ليس أمرًا ننتظره وحسب، بل أمر بدأ يحدث وسط أحزاننا.



www.faithandlight.wordpress.com

## الفصل التاسع

# روح آدم

عاد آدم الذي جاء من لدن الله وأُرسل إلى العالم لأربعة وثلاثين عامًا، مجدّدًا إلى الله. لقد تحقّقت مهمّته. لكنّها لم تنته. ولن تنتهي، لأنّ الحبّ أقوى من الخوف، ولأنّ الحياة أقوى من الموت. حبّ آدم وحياة آدم لن يكون مصيرهما الفساد. فهما أبديّان لأنّهما جزء من محبّة الله ومن حياة الله. قبيل موته، قال يسوع:

«لكنّي أقول لكم الحقّ إنّه خيرٌ لكم أن أنطلق.
لأنّه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزّي.
ولكن إن ذهبتُ أرسله إليكم. . . .
[و] يرشدكم إلى جميع الحقّ.»
**(يوحنّا ١٦ : ٦-٧، ١٣)**

روح آدم هي روح يسوع. إنّها روح «محبّة، فرح، سلام، طول أناة، لطف، صلاح، إيمان، وداعة، تعفّف» **(غلاطية ٥ : ٢٢)**. إنّ كلّ مَن عاشر آدم قد لمسته روح آدم الجميلة. إنّها الروح التي شفت الكثيرين وقدّمت إلى الكثيرين فهمًا جديدًا لمعنى حياتهم. موت آدم لم يطفئ روحه. بل على العكس، فالموت حرَّر تلك الروح لتنطلق في كلّ مكان، ولتلمس الأشخاص الذين لم يتسنَّ لهم مقابلة آدم، بل سمعوا عنه من الذين حظوا بامتياز معرفته. ولذلك، فإنّ الاحتفاظ بذكرى آدم



www.faithandlight.wordpress.com

حيّة تتجاوز مجرّد وضع صورته على الجدار، أو ذكره في صلواتنا، أو إقامة قدّاس خاصّ في ذكرى وفاته. الاحتفاظ بذكرى آدم حيّة تعني أن نبقى منفتحين لنتلقّى روح يسوع التي تعيش فيه والتي أُرسلت إلينا. لا يزال هناك الوفير ممّا يمكن آدم أن يعطيه إيّانا. ونحن بحاجة ماسّة إلى ما يتعيَّن عليه إعطاؤه.

قبل بضعة أسابيع ذهبتُ إلى نيو هاوس في زيارة قصيرة. كان الجميع هناك: روزي، روي، جون، مايكل، آن والآخرون. لم يكن آدم هناك، لكنّنا تحدّثنا عنه. قال جون ديڤيد: «لقد تغيّرت الأمور بذهاب آدم. نشعر بغيابه في كلّ لحظة». أضافت جودي: «نحن نفتقده كثيرًا». وقال ليشيك ببساطة: «هل تودّ أن تشرب شيئًا؟...».

كنّا واقفين وجالسين في أجزاء مختلفة من غرفة المعيشة. لم تكن دائرة مغلقة، بل دائرة متقطّعة، دائرة من الحزن والألم. كان هناك شعور عميق بأنّنا في نهاية عصر. عمر جمعيّتنا ستّة وعشرون عامًا، ولمدّة أحد عشر عامًا منها، كان آدم حاضرًا يحيك هيئته وأسلوبه الفريدَيْن في نسيج الجمعيّة. شعرنا جميعًا بأنّ موت آدم كان بمثابة مؤشّر على انتهاء فترة شبابنا في المجتمع الصغير. فقد كان حزننا يدفعنا نحن المجموعة من الأصدقاء إلى النضوج. لقد شاهدنا أناسًا يأتون ويذهبون، أناسًا يبدأون حياة جديدة هنا، ويعيشونها بالكامل، ثمّ لا يلبثون أن يموتوا. أصبح لدينا تاريخ طويل مشترك، وكان باستطاعتنا استرجاع ماضينا. تركَنا موت آدم بانتظار شيء جديد، شيء لا نملك بعدُ كلمات لوصفه.

تحوّل الحديثُ تدريجيًّا من آدم إلى حياتنا ومستقبلنا. كان جون ديڤيد يتهيّأ لزواجه الوشيك بشيلا، وكانت جودي تتهيّأ لزفافها إلى دڤيد. كان ليشيك يستعدّ للعودة إلى بلده بولندا لاستئناف دراسته،



وكان پدرو، وهو مساعد من أوكرانيا، يقدّم طلبًا إلى المعهد اللاهوتيّ في لفوف. أدركتُ أنّ مساعدي آدم كانوا ينطلقون في كلّ أرجاء العالم لاستئناف حياتهم.

لكنّ روح آدم ستلازمهم داخل قلوبهم. فحيثما عاشوا أو عملوا، سيستمرّ آدم في تذكيرهم بالأمور الكثيرة التي علّمهم إيّاها. والأمور التي لم تكن شديدة الوضوح في نظرهم عندما عاشوا معه حياة حافلة بالعمل، سوف تتّضح أمامهم عندما يتذكّرونه في السنوات القادمة. سوف يقولون لأصدقائهم: «سأحدّثكم عن آدم الذي عشتُ معه في نيو هاوس، في «ديبريك»، لعدّة سنوات خلت». وعندما يروون القصّة سيكتشفون مجدّدًا أنّ روح آدم، روح المحبّة، ستستمرّ في طرح ثمارها في حياتهم. سيبقى يرشدهم في أثناء تحقيقهم رسالاتهم.

في هذه الأثناء، ما زال الباقون: جون، روزي، روي، مايكل، آن والآخرون، يشيرون إلى المقعد الفارغ وإلى صورة آدم المثبتة إلى الجدار. وما زالوا يقولون لمَن يأتون لتناول العشاء: «آدم عاش هنا. لقد كان صديقًا ومرشدًا رائعًا. وبسبب حياة آدم وموته، حظينا نحن بنعمة السلام، والأمل، والمحبّة، والعرفان الكبير».



www.faithandlight.wordpress.com

# خاتمة

كانت حياة آدم والعلاقة التي ربطت بيننا نعمتَيْن حقيقيَّتَيْن ودائمتَيْن في حياتي. من وجهة نظر دنيويّة، لا يحمل الحديث عن علاقتنا أيّ معنى على الإطلاق. لكنّني أنا، هنري، صديق آدم، قرّرت رواية هذه العلاقة كتابة. لم أحاول تزويق العلاقة، ولم أحاول الانتقاص من قسوتها أو مرارتها. بل حاولتُ كتابتها بقدر ما أمكنني من البساطة والصراحة. أنا شاهد على حقيقة آدم. وأنا أعرف أنّه لم يكن ليقيَّض لي رواية قصّة آدم لو لم أكن في البداية عارفًا بقصّة يسوع. لقد وهَبَتني قصّة يسوع عينَيْن لأرى قصّة حياة آدم وموته، وأذنَيْن لأسمع بهما تلك القصّة. وفي ضوء قصّة يسوع، شعرت بأنّي مسوق إلى كتابة قصّة آدم بكلّ ما يسعني من بساطة وصراحة.

لقد أصبحت «السفينة» هي المجتمع الذي أنتمي إليه، وأصبح «ديبريك» منزلي ومأواي بسبب آدم الذي ضممتُه بين ذراعيَّ ولمسته بكلّ تجرّد وحرّيّة. وهبني آدم إحساسًا بالانتماء، جعلني أتأصَّل في حقيقة كياني الجسديّ، وأترسَّخ في المجتمع الذي أنتمي إليه. لقد منحني تجربة عميقة لحضور الله في حياتنا معًا. ولو لم أكن قد لمست آدم، فإنّي لا أعرف أين يمكن أن أكون حاليًّا. تلك الشهور الأربعة عشر الأولى التي قضيتُها في «ديبريك» أساعدُ آدم على الاستحمام وأُطعمه وأجالسه أحيانًا من دون أن أفعل شيئًا، منحتني المأوى الذي


www.faithandlight.wordpress.com

كنتُ أتوق إليه، ليس مأوًى مع أشخاص صالحين وحسب، بل مأوى داخل جسدي ذاته، داخل جسد المجتمع، داخل جسد الكنيسة. بلى، جسد الله.

لقد سمعتُ عن حياة يسوع وقرأتُ عنها، ولكن لم يتسنّ لي لمسه أو رؤيته. أمّا آدم فقد كنتُ قادرًا على لمسه. رأيتهُ ولمستُ حياته. كنتُ ألمسه ماديًّا عندما كنتُ أساعده على الاستحمام وأحلق له ذقنه وأنظّف أسنانه. كنتُ ألمسه عندما كنتُ أُلبسه ثيابه، وأسير به إلى طاولة الإفطار، وأساعده على رفع الملعقة إلى فمه. كان الآخرون يلمسونه عندما يدلكون جسده، ويجلسون معه في حوض السباحة، أو حوض «الجاكوزي». كان والداه يلمسانه، وكان مورييه وكاتي وبرونو يلمسونه. هذا ما كنّا نفعله: كنّا نلمس آدم. وما يقال عن المسيح يجب أن يقال عن آدم: «وكلّ من لمسه شفي» (**مرقس ٦ : ٥٦**). كلّ فرد منّا قُدِّر له لمس آدم صار كاملًا في موضع ما. كانت تلك تجربتنا المشتركة.

وهكذا تصبح قصّة آدم تعبيرًا عن إيماني وعن عقيدتي، وتعبيرًا عن قصّتي الذاتيّة بما لديّ من مكامن قوّة ومن إعاقات. وعندما كنتُ أعمل في وضع هذا الكتاب، استولى عليّ إدراك أخذ بالتزايد، أنّ كلّ كلمة في الكتاب إنّما تعنيني أنا بقدر ما تعني آدم. ولا يمكن الأمر أن يكون غير ذلك! فقد كانت محبّتي آدم، في المقام الأوّل، هي ما دفعتني إلى كتابة قصّته، لأنّها كانت محبّة تحوّلت إلى حزن مُشْبَع بالدموع طافح بالشوق. وهناك، في قلبي، حيث امتزج الحبّ بالأسى، ألهمتني روح الله قائلة: «إجلس واكتب. إروِ القصّة. بإمكانك روايتها لا لأنّك أحببتَ آدم فحسب، بل لأنّك تعرف القصّة الأخرى معرفةً جيّدة».

وهكذا جلستُ، في غمرة أحزاني، كتبتُ وكتبتُ وكتبت. كانت



الكلمات تنساب بسهولة، لكنّني حينما كنتُ أكتب كانت تتّضح أمامي أعمقَ فأعمق حقيقة أنّ آدم عاش سيرة يسوع التي كنتُ أرويها كلّ يوم إلى كلّ مَن رغب في سماعها.

والآن، سأرتاح لبرهة وجيزة. لقد رويتُ القصّة، وأنا آمل وأصلّي لكي يقرأها كثيرون ويدركوا مغزاها.



www.faithandlight.wordpress.com

## فهرس المحتويات


**تمهيد** ..... ٧

مقدّمة: **كيف جرى وضع هذا الكتاب؟** ..... ٩

الفصل الأوّل: **حياة آدم الخفيّة** ..... ١٥

الفصل الثاني: **صحراء آدم** ..... ٢٧

الفصل الثالث: **حياة آدم العلنيّة** ..... ٣٣

الفصل الرابع: **طريقة آدم** ..... ٥٧

الفصل الخامس: **آلام آدم** ..... ٧٣

الفصل السادس: **موت آدم** ..... ٨١

الفصل السابع: **السهر قرب جثمان آدم ودفنه** ..... ٩١

الفصل الثامن: **بعث آدم** ..... ١٠١

الفصل التاسع: **روح آدم** ..... ١٠٧

**خاتمة** ..... ١١١

**فهرس المحتويات** ..... ١١٥




www.faithandlight.wordpress.com